

صاحب تفسير « نظام القرآن »

ومؤلف (اساليب القرآن) ، و (اسباب النزول) ، و (تاريخ القرآن) ، و (أوصاف القرآن) و (الناسخ والمنسوخ) ، و (مفردات القرآن) ، و (اصول التاويل) ، و (دلائل نظام القرآن) الخ.

طُبع على نفقة جمعية

دار المصنفين

بمدينة أعظم كره (بالهند)

المطبعة السلفية ـ ومكتبتها

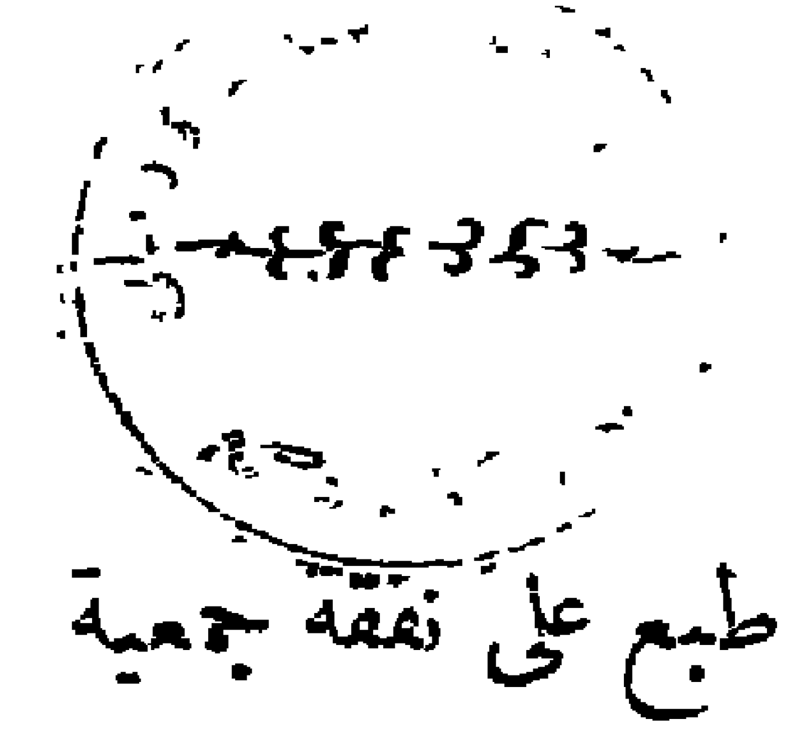


تأليف

المعلم عبد الحميد الفراهي

صاحب تفسير (نظام القرآن)

ورئيس لجنة المديرين لدار المصنفين بمدينة اعظم گره بالهند



طبع على نفقة جمعية

دار المصنفين

المطبعة السلفية - ومكتبتها

القاهرة

١٣٤٩

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) سبحان الذى أنطق كلّ شىء بأنه صنع يده ، وغذى رفده . سبح الشمس لكبريائه ومجده ، ويسجد له القمر بجبينه وخده ، يتمهد له البر بغوره ونجده ، ويحفد اليه البحر بجزره ومده . كما قال تعالى فى كتابه ﴿ تسبّح له السموات السبع والأرض ومن فيهن وانْ من شىء إلا يسبح بحمده ﴾ . ونصلى على محمد رسوله المختار وعبده ،وعلى آله وصحبه المعتصمين بحبله وعهده . والتابعين لهم على سواء السبيل وقصده * أما بعد فهذا كتاب فى بيان أقسام القرآن ، وموجز من المقدمة التى جعلتها لذكر الأمور الكلية التى أحتاج الى ايرادها فى كتاب (نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان) لتغنى عن التكرار الذى لاطائل تحته . وقد جاء القسم فى كتاب الله تعالى كثيراً واشتبه على الناس معناه وحكمته والبحث عنه فى كل موضع لايليق بكتابنا الذى بنى على الايجاز . فأردت أن أتكلم عليه من جهة كلية فى جزء مختصر . ولم أطلع على كتاب من القدماء فى هذا الباب غير كتاب التبيان للعلامة ابن القيم أو ما ذكر فى التفسير الكبير للعلامة الرازى ومن أئمه رحمهم الله وسنورد منهما فى خلال فصول كتابنا هذا ما يقتضيه سياق الكلام ، والله الهادى الى سبيل السلام

ذكر الشبهات الثلاث

على أقسام القرآن

(٢) لما كان المقصد الأعظم من هذا البحث ازالة الشبهات أردت أن أذكرها أولا ليكون الناظر من قبل على بصيرة بمساق الكلام فيتضح له شكل نظامه وغرض سهامه . فاعلم أن الشبهة على أقسام القرآن من وجوه :

(ا) القَسَم نفسه لا يليق بجلالة ربنا ، فان الذى يحلف على قوله يهين نفسه ويضعها موضع من لا معوّل على حديثه ، وقد جاء فى القرآن ﴿ولا تطع كل حلّاف مَهين﴾ فجعل الحلف من الخلال المذمومة ، ونهى المسيح الحواريين عن الحلف مطلقاً فقال لهم « ليكن قولكم نعم نعم أو لا لا ولا تحلفوا »

(ب) القسم فى القرآن جاء على أمور مهمة كالمعاد والتوحيد والرسالة ولا فائدة فيها للقسم الا للمنكر بها فانه يطلب الدليل والبرهان والقسم ليس فى شىء منه ولا للمؤمن فانه قد آمن بها

(ح) القسم يكون بالذى عظم وجلّ وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم « من كان حالفاً فليحلف بالله اوليصمت » فنهى عن القسم بغير الله فكيف يليق بجلالة ربنا أن يقسم بالمخلوق لا سيما باشياء مثل التين والزيتون

فهذه ثلاث شبهات . ونذكر أولا ما أجاب به الرازى وغيره من

المتقدمين ، ونذلك على مافيه من الضعف لنحذرك عن التمسك بالعرى الواهنة فانه أكبر ضرراً فى الدين وأبسط لألسنة المعاندين ومع ذلك ندعو أن يجازيهم الله بما اجتهدوا فى الذب عن بيضة الحق وذماره كما أدعو أن يجعلنى من حزب الحق وأنصاره

طريق الامام الرازى

فى الجواب عن هذه الشبهات

(٣) قد ذكر الامام الرازى الشبهة الثانية وأجاب عنها فى تفسير سورة والصّٰفّٰت فقال « والجواب من وجوه الاول انه تعالى قرر التوحيد وصحة البعث والقيامة فى سائر السور بالدلائل اليقينية فلما تقدم ذكر تلك الدلائل لم يبعد تقريرها فذكر القسم تأكيدا لاسيما والقرآن انزل بلغة العرب واثبات المطالب بالحلف واليمين طريقة مألوفة عند العرب(فيما ذكر من نزول القرآن بلغة العرب وكون اليمين طريقة مألوفة عندهم أيضاً جواب للشبهة الاولى) . وحاصل هذا الوجه ان القسم انما هو مسبوق بالدلائل . فالمعوّل عليها . واما ايراد القسم فهو للتأكيد المحض كما هو عادة العرب (والظاهر ان هذا الجواب يناقضه القرآن فانك فى أوائل الوحى ترى القسم أكثر مما تراه بعد استيفاء الدلائل) . الوجه الثانى فى الجواب انه تعالى لما اقسم بهذه الاشياء على صحة قوله تعالى « ان الٰهكم لواحد » ذكر عقيبه ماهو كالدليل اليقينى فى كون الاله واحداوهو قوله تعالى « رب السموات

والارض وما بينهما ورب المشارق » وذلك لانه تعالى بين فى قوله « لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا » أن انتظام السموات والارض يدل على ان الاله واحد فهاهنا لما قال « ان الهكم لواحد » اردفه بقوله « رب السموات والارض وما بينهما ورب المشارق » كأنه قيل قد بينا ان النظر فى انتظام هذا العالم يدل على كون الاله واحدا فتأملوا فى ذلك الدليل ليحصل لكم العلم بالتوحيد (وحاصل هذا الجواب ان القسم هاهنا مردف بقول فيه الحجة ، فالاحتجاج بها . واما القسم فلمحض التنبيه وهذا الجواب يشبه الجواب الاول وكلاهما ساكت عن بيان حكمة هذه الصور المتنوعة للقسم فأى فائدة للعدول عن القسم بالله الى القسم بهذه الاشياء) . الوجه الثالث فى الجواب ان المقصود من هذا الكلام الرد على عبدة الاصنام فى قولهم بانها آلهة فكأنه قيل هذا المذهب قد بلغ فى السقوط والركاكة الى حيث يكفى فى ابطالها مثل هذه الحجة والله أعلم » . هذا الجواب سخيف جدا كأنه بعد ما اعترف فى الوجهين الاولين بان القسم لا حجة فيه قال ان مذهب الخصم كان جديرا بان يجاب عنه بما ليس من الحجة فى شيء . ثم ذكر من حكمة القسم فى تفسير سورة الذريت ما يشبه بالجواب عن الشبهات فقال « قد ذكرنا الحكمة فى القسم وهى من المسائل الشريفة والمطالب العظيمة فى سورة والصفت ونعيدها ههنا وفيها وجوه : الأول أن الكفار كانوا فى بعض الأوقات يعترفون بكون النبي غالبا فى اقامة الدليل ، وكانوا ينسبونه الى المجادلة والى أنه عارف فى نفسه بفساد ما يقوله وانه يغلبنا بقوة الجدل لا بصدق المقال كما أن بعض الناس اذا أقام عليه الخصم الدليل ولم يبق له

حجة يقول انه غلبني بعلمه بطريق الجدل وعجزي عن ذلك وهو في نفسه يعلم أن الحق بيدي فلا يبقى للمتكلم المبرهن طريق غير اليمين فيقول ان الأمر كما أقول ولا أجادلك بالباطل وذلك لأنه لو سلك طريقاً آخر من ذكر دليل آخر فاذا تم الدليل الآخر يقول الخصم فيه مثل ما قال في الأول أن ذلك تقرر بقوة الجدل فلا يبقى الا السكوت أو التمسك بالايمان وترك اقامة البرهان ، وفي هذا الجواب خلط بين الغث والسمين ونقض لما قال في تفسير سورة والصّٰفّٰت فانه رحمه الله أجاب هناك في الوجه الثاني بأن القسم يتبعه الدليل وانما كان القسم لأجل التأكيد ، والأمر كذلك فان القرآن لا يسكت على القسم فلو قال ان الدليل المحقق ربما لا ينجع في الخصم اذا كان قايل المعرفة بالاستدلال وقايل الاعتماد على نظره أو متهماً للمتكلم بخلابة بيانه فيحسن في هذه الحالات شوب الحجة باليمين فلو قال هكذا لكان أقرب . الثاني : هو أن العرب كانت تحترز عن الايمان الكاذبة وتعتقد أنها تدع الديار بلاقع ثم ان النبي ﷺ أكثر من الايمان بكل شريف ولم يزده ذلك إلا رفعة وثباتا وكان يحصل لهم العلم بأنه لا يحلف بها كاذبا والا لأصابه شؤم الايمان ولناله المكروه في الأزمان وفي هذا الجوب كأنه أشار الى سبب كون اليمين طريقة مألوفة عند العرب كما مر ، وقد أصاب في ذلك لو لم يزد عليه ما قال من أن النبي ﷺ أكثرَ من الايمان بكل شريف كأنه بين سبب خوفهم وأراد أنهم اذا أقسموا بكل شريف خافوا سخطه ان كذبوا في يمينهم به ، وضعف هذا القول ظاهر فان أقسام القرآن (١) ربما يكون بما ليس فيه شرف

(٢) والقرآن يهدى الى أن لايخاف الا الله (٣) وأى شوم يخاف من التين والزيتون (٤) ثم النبي ﷺ كان يبلغ القرآن من الله فالقسم منه تعالى وهو لا يخاف أحداً . فلو اقتصر على الجزء الأول من جوابه وقال ان العرب كانت تحترز عن الايمان الكاذبة وتخاف مغبتها وتعتقد أن الرجل لا يحلف كذبا فاذا حلف أحدٌ أصغوا اليه كان أقرب الى ما يجاب به عن الشبهة الاولى والثانية جوابا ضعيفاً . الثالث : أن الايمان التي حلف الله تعالى بها كلها دلائل أخرجها فى صورة الأيمان مثاله قول القائل لمنعمه وحق نعمك الكثيرة انى لا أزال أشكرك فيذكر النعم وهى سبب مفيد لدوام الشكر ويسلك مسلك القسم كذلك هـذه الأشياء كلها (أى التى أقسم بها فى أول الذّٰريٰت) دليل على قدرة الله تعالى على الاعادة فان قيل فلم أخرجها مُخرج الأيمان ، نقول لأن الانسان اذا شرع فى أول كلامه بحلف يعلم السامع أنه يريد أن يتكلم بكلام عظيم فيصغى اليه اكثر من أن يصغى اليه حيث يعلم أن الكلام ليس بمعتبر ، فبدأ بالحلف وأدرج الدليل فى صورة اليمين . هـذا الجواب يكفى لدفع الشبهة الثانية ولكن يلزم على القائل به أن يبين وجه الاستدلال بالمقسم به على المقسم عليه وهذا مع كونه ظاهراً فى بعض المواضع كثيراً ما يحتاج الى امعان شديد ولعله لهذا السبب لم يعتمد عليه إلا فى هذه سورة الذرّٰيٰت وفى بعض أخر وأما فى البواقى فله طريقان : الأول أنه ينكر وجود القسم اذا أمكنه الانكار فراراً عن شبهات واردة على القسم كما قال فى تفسير سورة القيامة فى ذكر لا التى تبتدئ بها السورة « الاحتمال الثانى أن لا هنا لنفى القسم

كأنه قال لا أقسم بذلك اليوم وتلك النفس ولكنى أسألك غير مقسم أتحسب انا لا نجمع عظامك اذا تفرقت بالموت فان كنت تحسب ذلك فاعلم انا قادرون على أن نفعل ذلك . وهذا القول اختيار أبى مسلم وهو الأصح» هذا القول غير مختار عند العارف بكلام العرب فانه لو كان المراد كما فهم لكان وجه القول نفى مجرد القسم لاذكر الأشياء الخاصة كالنفس اللوامة والخنس الجوارى الكنس وغيرها ، ثم هذا مخالف لأسلوب كلامهم فانهم يستعملون كلمة لا قبل القسم منقطعة كما بينا فى تفسير سورة القيٰمة وهذا هو مختار الزمخشرى والطريق الثانى : هو القول بأن القسم للتأكيد والتنبيه على شرافة المقسم به قال فى تفسير سورة الذّٰريٰت وقد عرفت أن المقصود من القسم التنبيه على جلالة المقسم به . وعلى هذا الأصل قال فى تفسير سورة التين « اعلم أن الاشكال هو أن التين والزيتون ليسا من الامور الشريفة فكيف يليق أن يقسم الله تعالى بهما فلأجل هذا السؤال حصل فيه قولان » ثم ذكر فوائدهما ان كان المراد منهما هذه الأثمار ، وذكر شرافتهما ان كان المراد منهما مسجدين أو بلدين . وقد علمت أن التمسك بهذا الجواب مع كونه بادى الخلل لا يزيل الشبهة الثالثة فان هذه الأشياء التى أقسم بها فى القرآن ومنها : العاديات ضبحا ، والجوارى الكنس ، والليل ، والصبح ، والتين والزيتون ، ليست من الجلالة بمكان يقسم بها خالقها وربها ان كان القسم لأجل شرافتها

طريق العلامة ابن القيم رحمه الله

فى تأويل أقسام القرآن لدفع الشبهات

(٤) لم يضع العلامة ابن القيم كتابه على شكل المجادلة فيذكر الشبهات ويجيب عنها لكنه بحث عن حكمة القسم فى القرآن وبين فيه ما يزيل الوهم ويحسم جراثيم الاعتراض وركن الى الجواب الذى استحسنته ولكنه مثل الرازى لم يتمسك به كل التمسك فذبذب بين أمرين وهو فى كتابه ربما يشرح فى تفسير السور التى فيها القسم ويخرج من قول الى قول . وانى أورد عليك خلاصة جوابه ، وذلك على موضع الخلل فيه حسب شرطنا فاعلم أنه رحمه الله سلك مسلك الاستقراء فمهد أولا أن أقسام القرآن كلها بالله وصفاته وآياته فقال « وهو سبحانه يقسم بأمور على أمور وانما يقسم بنفسه الموصوفة بصفاته وآياته المستلزمة لذاته وصفاته ، وأقسامه ببعض المخلوقات دليل على أنه من عظيم آياته » وبعد ذكر الامثلة قال «اذا عرف هذا فهو سبحانه يقسم على أصول الايمان التى يجب على الخلق معرفتها تارة يقسم على التوحيد وتارة يقسم على أن القرآن حق، وتارة على أن الرسول حق ، وتارة على الجزاء والوعد والوعيد ، وتارة على حال الانسان » ومآله عنده الى الجزاء فقصر القسم على ثلاثة أمور وهذه الثلاثة مآلها واحد وهو صفته تعالى كما ستعلم من قوله عن قريب فبعد هذا التمهيد لم يبق له كبير حاجة الى جواب القسم فان القسم بنفسه دلالة على المقسم

عليه المعلوم المتعين وهو أحد الامور الثلاثة، فقال فى ذكر القسم الذى تبتدئ به سورة والعاديات وسورةوالعصر « حذف جواب القسم لانه قد علم بأنه يقسم على هذه الامور (أى التوحيد والنبوة والمعاد) وهى متلازمة فمتى ثبت أن الرسول حق ثبت القرآن والمعاد ومتى ثبت أن القرآن حق ثبت صدق الرسول الذى جاء به، ومتى ثبت أن الوعد حق والوعيد حق ثبت صدق الرسول وصدق الكتاب الذى جاء به. والجواب يحذف تارة ولا يراد ذكره بل يراد تعظيم المقسم وانه مما يحلف به » فهذه الأقسام عنده دلالات على صفات الله كما قال فى ذكر القسم الذى تبتدئ به سورة البروج « وكل ذلك من آيات قدرته وشواهد وحدانيته » ثم قال « والاحسن أن يكون هذا القسم مستغنيا عن الجواب لان القصد التنبيه على المقسم به وانه من آيات الرب العظيمة » وكذلك قال فى ذكر القسم الذى تبتدئ بهسورة الطارق «والمقصود أنه سبحانه أقسم بالسماء ونجومها المضيئة وكل منها آية من آياته الدالة على وحدانيته » ثم قال فى ذكر القسم الذى جاء فى وسط هذه السورة « فأقسم سبحانه بالسماء ذات المطر والارض ذات النبات وكل من ذلك آية من آيات الله تعالى الدالة على ربوبيته » وهكذا قال فى ذكر القسم الذى فى أواخر سورة الانشقاق « وهذه (أى الشفق والليل والقمر) وأمثالها آيات دالة على ربوبيته مستلزمة للعلم بصفات كماله » ثم قال فى جواب هذا القسم « يجوز أن يكون من القسم المحذوف جوابه » وهذا لما قلنا أنه لا يحتاج الى جواب القسم فان المقسم عليه عنده معلوم متعين هذا ولا يخفى عليك الفرق بين

طريق الرازى رحمه الله الذى أشار الى أجوبة مختلفة ربما يناقض بعضها بعضاً وبين طريق ابن القيم رحمه الله الذى عمد الى نهج واحد واجتهد أن يعول عليه فى جميع الاقسام وهذا الطريق أحسن . والآن ندلك على ملاك الامر فى جوابه فاعلم أنه رحمه الله اعتمد على أصلين : الاول انه سبحانه وتعالى انما قسم بنفسه وآياته وأما القسم بالمخلوقات فهو أيضا من باب القسم بذاته فانها من آياته . وأراد بهذا الاصل ازالة الشبهة الثالثة وهى تعظيم المخلوق فوق مكانته ولكنها لم تزل فان القسم تعلق صريحا بالمخلوقات وكونها من آياته ودلائل صفاته لا يخرجها عن كونها المقسم بها . وقوله « والجواب يحذف تارة ولا يراد ذكره بل يراد تعظيم المقسم به وانه مما يحلف به » تصريح منه بأنه سبحانه أقسم بغير ذاته المقدسة وأراد تعظيم بعض مخلوقاته فغاية الامر أنه تعالى لم يقسم بها الا من جهة شريفة ولا بأس بأن يجعل الله تعالى لبعض مخلوقاته شرفا وكرامة لكن الشبهة ليست فى محض شرافة بعض الاشياء فربَّ صغير كبير ورب ضئيل نبيل لاختلاف الاعتبارات بل الشبهة فى وضعها موضع ما يقسم به الرب تعالى شأنه علواً كبيراً . والاصل الثانى الذى اعتمد عليه هو أن الاقسام كلها دلالات على المقسم عليه ، وأراد بهذا الاصل ازالة الشبهة الثانية كما فعل الرازى رحمه الله حين ذكره فى وجوه أخر فلم يعتمد عليه وأما ابن القيم رحمه الله فاعتمد على هذا الاصل كل الاعتماد وفسر أكثر آيات القسم على طريق يظهر به دلالة المقسم به على المقسم عليه واذا أشكل عليه الربط جعل المقسم عليه محذوفا وجعل القسم دالا على صفات الله وغيرها

مما ذكرنا آنفا. ومع هذا الوهن فى جوابه والتصريح أحيانا بأن القسم لتعظيم المقسم به لقد أجاد وأصاب أو قد كاد فى غير موضع من كتابه

طريق هذا الكتاب

فى الجواب على سبيل الاجمال

(ت) لا يخفى عليك مماسبق من أقوال العلماء رحمهم الله أن أحسنهم قولا من يقول ان هذه الاقسام دلالات ولكن الغمة التى لم تنجل عنهم والمضيق الذى لم يخرجوا منه هو ظنهم بكون القسم مشتملا على تعظيم المقسم به لا محالة وذلك هو الظن الباطل الذى صار حجابا على فهم أقسام القرآن ومنشأ للشبهات . فنبطله أولا حتى يتبين أن أصل القسم ليس فى شىء من التعظيم انما هويفهم من بعض أقسامه ثم نبين أن أقسام القرآن بالمخلوقات ليست الا آيات دالة وانها نوع من القسم مباين للاقسام التعظيمية وليس من القسم بصفات الله كما ذهب اليه ابن القيم رحمه الله . ثم نرجع الى الفرق بين مواقع القسم المحمودة وغير المحمودة حتى يتبين أن النهى المطلق غير صحيح . فهذه ثلاثة مقاصد يتوجه اليها الكلام فى كتابنا هذا واذ هى تقتضى بعض التفصيل والبسط فى الكلام دعينا الى أن نبحث عن تاريخ القسم وحاجة الناس اليه قديما وحديثا وطرقه المتنوعة ، ونبين معانى كلمات القسم ومفهومه الأصلى ومفاهيمه المتشعبة الثلاثة من الاكرام والتقديس والاستدلال المجرد عن التعظيم . ونورد من نفس

القرآن دلائل واضحة على تأويل أقسامه وندل على أسباب خفاء هذا التأويل ليتضح عذر من قبلنا من كبار العلماء رحمهم الله . ونشير الى بعض وجوه البلاغة فى أقسام القرآن . ثم نذكر وجوه النهى والاباحة والاستحسان فى القسم . ونكشف عن تأويل قول المسيح عليه السلام حين نهى تلاميذه عن الحلف ونلمع الماعاً الى بعض بلاغة القرآن فى تمييزه بين كلمات القسم حسب مواقعه لتعلم ما لا يحسن منه . ذلك وقد ذكرنا فيما قدمنا جل مطالب هذا الكتاب اجمالا ، فالآن نشرع فى التفصيل ، والله الموفق ونعم الوكيل

تاريخ القسم وحاجة الناس اليه

وطرقه المختلفة والدلالة على حقيقة معناه فى أول الأمر

(٦) ان الانسان ربما يحتاج الى تأكيد خبر أو وعد منه حين يريد أن يعتمد عليه المخاطب وتطمئن به نفسه لا سيما فى الأمور العظيمة كالمعاهدة بين قوم وقوم أو بين ملك ورعيته أو بين أفراد الناس ليكونوا على ثقة بعضهم من بعض فيعلموا الموافق من المخالف والولى من العدو . وهذه الحاجة التمدنية دعتهم الى طرق وكلمات خاصة يعبرون بها عن هذا التأكيد فكان ذلك أصل قسمهم . فربما عبروا عنه بأخذ اليمين كما علمنا من أحوال الروم والعرب والعبرانيين . فاذا أخذ بعضهم يمين بعض عند المعاهدة أفصحوا بعزمهم وتأكيده كأنهم قالوا اننا قد وصلنا أمرنا ورهنا

به أيماننا . ولذلك سموا القسم يميناً وربما صرحوا بهذا المعنى كما قال جساس :

سأؤدّى حق جارى ويدى رهن فعالى

ومن هنا تضمن القسم معنى الكفالة والضمانة . وهذا معلوم ومعروف وباق فى أخذ اليمين للبيعة وصفق اليد فى البيع والشراء ونراه فى أمم أخر كالروم والهند ونرى العبرانيين أيضاً أنهم عبروا عن القسم باليمين فجاء فى الزبور ص ١٤٤ عدد ٨ « الذين أفواههم تنطق سوءاً ويمينهم يمين كذب » فى العبرانية « أشر فيهم دبّر سوء ويمينام يمين سوء » والعجب من المترجمين الانكليزيين كيف ذهب عليهم هذا المعنى فترجموه بقول معناه « اليد اليمنى منهم يد يمنى الكذب » فلم يفهموا من كلمة اليمين القسم بل اليد اليمنى وهذا من أفحش العثرات ويخبر عن قلةالتفاتهمالى العبرانية . والعجب كل العجب أنهم فى هذا الزمان أصلحوا الترجمة المستندةوغيروها كثيراً ومع ذلك تركوا هذا الخطأ الفاحش على حاله . ذلكوجاء ذكر العقد بصفقة الكف فى أمثال سليمان فى التحذير عن الضمانةص٧ عدد ١ « يابنى ان ضمنت صاحبك فصفقت كفك لغريب » فتشابهت هاتان الامتان فى أمر العقد ولذلك صارت كلمة اليمين اسماً للقسم بين العبرانيين كما هى عندنا وربما غمسوا أيمانهم فى اناء ماء إذا كانوا كثيرين فكأنهم أخذ بعضهم يد بعض وأجمعوا أمرهم بما مسهم شيء واحد ، والماء أبلغ فى المس واللصوق ولذلك قالوا بلّ بالشيء يدى أى لصق به . قال طرَفة :

إذ ابتدر القوم السلاح وجدتنى منيعاً اذا بلت بقائمه يدى

وربما أخذوا عطراً فاقتسموه بينهم ومسحوا بهأيديهم فراحوا وعبقه

بهم فهو أبقى من الماء وأشهر وأعرف ولذلك سموه عرفا ونشراً ومن أمثلة هذا الطريق لمعاهدتهم ما نرى فى قصة عطر منشم ؛ وهى أن قوما تحالفوا على أن يقاتلوا عدوهم وجعلوا آية الحلف تعاطى عطر باعوه من عطّارة تسمى منشم ، وقصة هذا الحلف مشهورة حتى جرى به المثل ، قال زهير :

تداركتما عبساً وذبيان بعــد ما تفانوا ودقوا بينهم عطر منشم

وكذلك نرى غمس الايدى فى العطر فى قصة حلف المطيبين التى نذكرها فى الفصل العاشر

وربما ذبحوا بهيمة ورشوا دمها على أجسام الفريقين من الحلفاء علامة لموالاتهم الى حد القرابة ، أو لثباتهم على الحلف حتى يسيلوا مهجهم . جاء فى سفر الخروج ص ٢٤ عدد ٥ ـ ٨ : « وأرسل فتيان بنى إسرائيل فاصعدوا محرقات وذبحوا ذبائح سلامة للرب من الثيران فاخذ موسى نصف الدم ووضعه فى الطسوس ونصف الدم رشه على المذبح . وأخذ كتاب العهد وقرأ فى مسامع الشعب فقالوا كل ما تكلم به الرب نفعل ونسمع له ؛ وأخذ موسى الدم ورش على الشعب وقال : هو ذا دم العهد الذى قطعه الرب معكم على جميع هذه الأقوال » فترى فى هذا القسم أنهم عاهدوا الرب برش الدم على أنفسهم وعلى المذبح نيابة عن الرب فصاروا حلفاء للرب . وهذا كثير ، جاء فى سفر زكريا ص ٩ عدد ١١ « فإنى بدم عهدك قد أطلقت اسراك »

وربما وصل بعضهم حبله بحبل الآخر فصار من حلفائه حتى صار الحبل اسما لعقد الذمة والجوار كما جاء فى القرآن «بحبل من الله وحبل من الناس» وقال امرؤ القيس :

انى بحبلك واصل حبلى   وبريش نبلك رائش نبلى

وذكر الحطيئة أصل ذلك فقال :

قوم يبيت قرير العين جارهم   اذا لوى بقوى أطنابهم طنبا

فهذه طرق تأكيد عقودهم بين فريقين ومن الفريقين

ثم ربما حرّموا على أنفسهم بعض المشتهيات حتى يفعلوا بعض ما أوجبوا على أنفسهم وسموه نذرا كما نذر المهلهل أخو كليب أن لا يشرب الخمر ولا يمس الطيب ولا يرجل شعره الى أن يأخذ بثأر أخيه ، وقصته مشهورة وكذلك فعل امرؤ القيس وقال بعد ما حل نذره :

حلت لىَ الخمر وكنت امرءاً   عن شربها فى شغل شاغل

ثم توسع معناه وصار النذر التزام شىء عن طريق القسم كما قال عمرو بن معدى كرب :

هم ينذرون دمى وانـذر ان لقيت بأن أشدا

ولذلك سموا النذر يمينا كما قال قبيصة بعد ذكر إيفاء النذر :

فأصبحت قد حلت يمينى وأدركت   بنو ثعل تبلى وراجعنى شعرى

فى أبيات ذكرت فى الحماسة أى بعد ادراك تبلى حل نذرى أى ما حرمته علىّ بالنذر. ويشبه النذر دعوتهم على أنفسهم أو الزامهم إياها سوءا ان كانوا كاذبين فى خبر أو وعد . كما قال معدان بن جواس الكندى :

ان كان ما بلغت عنى فلامنى   صديقى وشلت من يدىّ الأنامل

وكفنت وحدى منذراً فى روائه   وصادف حوطاً من أعادى قاتل

ومثله ما قال الأشتر النخَعى :

بقيت وفرى وانحرفت عن العلى ولقيت أضيافى بوجه عبوس
ان لم أشن على ابن حرب غارة لم تخل يوماً من نهاب نفوس

ومن هـذا الدعاء بالمكروه لمحة في الأقسام الدينية فان فيها خوف سخط الله ولعنته ان كذب الحالف بعد اشهاد الله على قوله

وربما كفوا عن شيء من غير شرط وسموه أليّة كما جاء في القرآن « للذين يولون من نسائهم تربص أربعة أشهر » ثم توسع استعمالها فصار قولهم آليت مرادف أقسمت . قال امرؤ القيس :

« وآلت حلفة لم تحلل »

وقال طرَفة :

فآليت لا ينفك كشحى بطانة لعضب رقيق الشفرتين مهند

وقالت غنية أم حاتم الطائى :

لعمرى لقدما عضنى الجوع عضة فآليت ألا أمنع الدهر جائعا

وهذا كثير فى كلامهم ، يقولون آليت مرادفاً لأقسمت

وربما استعملوا لام التأكيد وقالوا لأفعلن أو مثله كقوله تعالى « وان لم ينتهوا عما يقولون ليمسَّن الذين كفروا منهم عذاب أليم » أو كقوله تعالى :« ولينصرنّ الله من ينصره » أو كقول لبيد :

ولقد علمت لتأتين منيتى ان المنايا لا تطيش سهامها

قال سيبويه رحمه الله « كأنه قال : والله لتأتين » وانما قال هـذا على طريق التمثيل فانه رحمه الله أراد أن ههنا يميناً كما قال فى ذكر لام القسم « ومثل ذلك لمن تبعك منهم لأملأنّ انما دخلت اللام على نية اليمين ، والله

أعلم »فلم يرد أن ههنا قسما بشيء بل المراد أن مجرد قوله تعالى « لاملأن» يمين وذلك لأن القسم ليس إلا التأكيد ولا تحتاج الى تقدير المقسم به فى كل موضع . وعلى هذا الأصل كل ماترى فى القرآن من لام اليمين واذا جاءت قبلها كلمة تدل على اليقين والجزم كانت مشابهة بكلمة القسم كما رأيت فى بيت لبيد الذى مر آنفاً ومثله فى قوله تعالى «ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه حتى حين » ومثله فى قوله تعالى « قال فالحق والحق أقول لأملأنّ جهنم » فليس لك أن تقدر مقسما به فى هذه الامثلة التى ذكرناها ولا يليق بها كما يظهر من سياق الكلام فكل ماذكرنامن طريق اليمين والحلف وتعبيراته يدلك على أن المقسم به ليس من لوازم القسم حتى تقدره كلما لم يذكر ، انما أرادوا بالقسم تأكيداً محضاً للقول أو اظهار عزم وصريمة الزموا به على أنفسهم فعلا أو ترك فعل

بيان أن القسم لايلزمه المقسم به

بايضاح معانى كلمات كثر استعمالها للقسم

(٧) ليس القسم بالله أو بشعائره من المعانى البسيطة حتى يوضع له اللفظ أولا فيظن أن المقسم به اذا لم يذكر كان المراد منه القسم بالله تعالى انما القسم التعظيمى نشأ من تركيب دواعى المعاشرة وعقائد الدين ويأتيك بيانه فى الفصل العاشر ، وأما فى هذا الفصل فنوضح معانى كلمات كثر استعمالها للقسم لتعرف أنها فى أصلها لم توضع للقسم بالله أو بشعائره أو

بشيء آخر ، وهذه الكلمات هي اليمين والنذر والالية والقسم والحلف . أما اليمين فقد علمت وجه استعمالها وعمومها للقسم وما فيها من معنى الرهن والكفالة والضمانة فلا نعيده . وأما النذر فهو الابعاد والتحذير ومنه ابعاد الشيء عنك وجعله لله فصار بمعنى التحريم وبهذا المعنى يستعمل في العبرانية ومنه تحريم المشتهيات ثم توسع لالزام الشيء على النفس على وجه القسم كما مر . وأما الالية فمعناها الاقصار عن الامر فيقال الآلي للمقصر العاجز عن الشيء ثم جاء لترك الشيء ومنه الايلاء من النساء على وجه القسم ، ثم توسع في معنى الزام الشيء سواء كان للترك أو الفعل ولكنه أكثر في الزام ما فيه شوب من المضرة فشابه النذر كما قال ابن زيابة التيمي :

آليت لا أدفن قتلاكم ... فدخنوا المرء وسرباله

ثم توسع وصار مرادفا للقسم كما مر في الفصل السابق . وأما القسم فهو في أصله للقطع ومنه قسمت الشيء وقسمته . والقطع يستعمل لنفي الريب والشبهة ولذلك شواهد كالصريمة والجزم والقول الفصل والابانة والصدع والقطع ، فهذا هو الاصل ثم اختص القسم من بين هذه الألفاظ بشدة الفصل بالقول واستعماله من باب الأفعال لخاصية المبالغة كقولهم « أسفر الصبح » ولا يلزمه أن يكون له مقسم به سواء كان على خبر أو عقد كما قال طرفة في معلقته : «أقسم ربها لتكتنفن » وهذا كثير في كلام العرب . قالت جنوب في مرثيتها المشهورة :

فاقسمت يا عمرو لو نبهاك ... اذاً نبها منك امرا عضالا

وقالت ريطة السلمية :

فاقسمت لا أنفك أحدر عبرة تجود بها العينان منى لتسجما

وقالت خرنق أخت طرفة :

ألا أقسمت آسى بعد بشر على حى يموت ولا صديق

وَجاء فى القرآن « أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة » ومنه قوله تعالى « وقاسمهما انى لكما لمن الناصحين فدلاّهما بغرور» فان قيل ان المقسم به مقدر وهو الله تعالى قلنا ان أردت الاحتمال فلا ننكره انما قولنا أنه غير لازم ، فلقد رأينا أن القسم يكون بالله تعالى وبغيره ، وربما يكون مجرداً عن المقسم به وحينئذ لا يراد به الا التأكيد والجزم المحض . وأما الحلف فمعناه القطع والحدة فيشابه كلمة القسم يقال : سنان حليف أى قاطع ولسان حليف أى حديد ذلق وعند الازهرى هذا مأخوذ من الحلف وهو نبات أطرافه محددة فقولهم حلف على أمر كقولهم قطع به وهذا هو الاصل ثم اختص مثل القسم بشدة الفصل والجزم فى القول ولذلك لا يلزمه المقسم به ، ألا ترى أنهم اذا عقدوا الموالاة بينهم باى طريق كانت سموا حلفاءوقد علمت طرقه المختلفة التى لم يحلفوا فيها بشىء . فتبين مما مر بك فى هذا الفصل والذى قبله أن القسم لا يلزمه المقسم به فضلا عن تعظيمه وتلك هى كلمات قد كثر استعمالها للقسم بحيث أنه لا يلتفت الى أصول معانيها ، ولذلك قدمنا ذكرها . ثم للقسم كلمات اخر لم يذهل عن معانيها الاصلية ، فاذا نظرنا فيها وجدناها أظهر دلالةعلى أنها ليست فى شىء من تعظيم المقسم به ، ونذكر هذه الكلمات فى الفصل الآتى

بيان أصل معنى القسم اذا كان فيه مقسم به

(٨) بعدما علمت معنى القسم المجرد عن المقسم به لا يبعد عنك فهم معناه إذا أقسم فيه بشيء فانما هو ضم المقسم به مع المقسم كالشاهد على قوله،ولذلك كثر استعمال الواو قبله وكذلك الباء . وأما التاء فانما هي مقلوبة من الواو كما ترى في تقوى وتجاه.فهذه الحروف للمعية ولضم الشيء بالشيء.ويؤيدهذا التأويل ما علمت من تاريخ القسم وطرقه فانهم لم يقسموا الا على رءوس الاشهاد فكانوا شهداء على أيمانهم لتأكيدها . فان الرجل يجتنب أن يجعل نفسه كاذباً في عيون الناس .ويشهد على هذا المراد ما جاء في القرآن في ذكر ميثاق النبيين حيث قال عزّ من قائل « واذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدّق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم اصرى قالوا أقررنا قال فاشهدوا وانا معكم من الشاهدين فمن تولى بعد ذلك فاولئك هم الفاسقون » أي قد أوثقنا هذا العهد بشهدى ومشهدكم فلا يسوغ الانكار بعد ذلك الا بالفسق . وأصل هذا التأكيد أن المرء اذا قال اشهد به فقد صرح بأنه يقول بعلمه ومشهده لا بسماعه فلا يمكن له العذر ان كذب . ولذلك قال إخوة يوسف عليه السلام « وما شهدنا الا بما علمنا وما كنا للغيب حافظين » واستعمال هذا الوجه في القسم يرى في قوله تعالى « لكن الله يشهد بما أنزل اليك أنزله بعلمه والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيداً » . ثم في الشهادة أكبر وجوه التأكيد من جهة أخرى وهي أن الرجل اذا

قال أشهد أن الأمر كذا فكأنه قال أنا أقول هذا كمن يقوم شاهداً على أمر،والكذب فى الشهادة أكبر اثماً وأشد ذماً . ولذلك ورد النهى عنه خاصة فى الشرائع كما جاء فى الأحكام العشرة من التوراة ويشبهه ما ذكر القرآن فى مدح الأبرار « والذين لا يشهدون الزور » على أظهر تأويله ثم ترى صريح قولهم فى اقسامهم « أنا أشهد » و « الله يشهد » و « الله يعلم » وهذا فى أكثر اللغات . فانا نرى الأمم فى المشرق والمغرب مع اختلاف كثير فى عاداتهم لا يختلفون فى أنهم اذا قالوا الله شهيد على ذلك أو ما يشبهه أرادوا به القسم . وقال سيبويه رحمه الله فى ذكر لام اليمين « واعلم أن من الأفعال أشياء فيها معنى اليمين يجرى الفعل بعدها مجراه بعد قولك « اقسم لأفعلن وأشهد لأفعلن » فصرح بأن أشهد معناه اليمين وان قولك اقسم كقولك أشهد . ويفصل هذه القضية ما جاء فى القرآن من التصريح بكون الشهادة والاشهاد يميناً حيث قال تعالى : « اذا جاءك المنافقون قالوا نشهد انك لرسول الله والله يعلم أنك لرسوله والله يشهد ان المنافقين لكاذبون . اتخذوا أيمانهم جُنَّة فصدوا عن سبيل الله » فسمى الله الشهادة منهم ايمانهم . وكذلك جاء التصريح بكون الشهادة بالله يميناً حيث قال تعالى « ويدرأ عنها العذاب أن تشهد أربع شهادات بالله انه لمن الكاذبين » وحيث قال تعالى « ويُشهد الله على ما فى قلبه وهو ألدُّ الخصام » فتبين مما ذكرنا أن القسم بالشيء أصله الاشهاد به وتأتيك دلائل أخر على ماقلنا فى الفصل العاشر . فأما معنى تعظيم المقسم به فذلك مما انضم به فى بعض الأحوال فهو من عوارض القسم وسيأتيك ذكره .

وبعد ما علمت حقيقة القسم وأصل مفهومه نذكر لك المفاهيم التى هى فروع على الاصل، وهى الاكرام والتقديس والاستدلال، ونذكرها بالترتيب لتفهم وجوهها وتميز بين معانيها حتى يسهل لك النظر فى أقسام القرآن فتعرفها على وجهها وتكون على بصيرة فى تأويلها

القسم على وجه الاكرام

للمقسم به، والمتكلم، والمخاطب

(٩) لما كان الصدق من أحب سجايا العرب لاسيما اذا عاهدوا على أمر وأعطوا له أيمانهم واشهدوا عليه، فاذا صاروا حلفاء أو عقدوا عقد الجوار أو نذروا بأمر أوفوا ذمتهم وعدّوا الكذب فيها بعد القسم عاراً عظيما وذلة كبيرة لأنفتهم وللحمية التى جبلوا عليها، وكان فى رهن أيديهم للعقود عندهم آية على أنهم يخاطرون لها أنفسهم، فتضمن القسم مخاطرة النفس كما مر فى الفصل السادس، ولذلك كثر قسمهم بقولهم لعمرى أى أنا أخاطر على هذا القول حياتى، وربما بينوا هذا المراد كما قالت ريطة بنت العباس السلمى :

لعمرى وما عمرى علىَّ بهين　　لنعم الفتى أرديتم آل خثعما

وقال النابغة الذبيانى :

لعمرى وما عمرى على بهين　　لقد نطقت بطلا على الاقارع

وهذا كثير . ومن هذه الجهة انضم مفهوم الاكرام بالمقسم به فان المتكلم لا يدل على تأكيد قوله بهذا الطريق الا اذا أقسم بما يكرمه ويضن به فهذا هو أصل هذا النوع من القسم، ثم تجاوزوه الى قولهم « لعمرك » أو ما يشبهه لما فيه من اكرام المخاطب كأن القائل أراد انى لا اقسم بعمرى بل بعمرك الذى هو أعز وأكرم على . وهذا هو الاصل ثم ربما لا يراد به الا تأكيد القول مع اكرام المخاطب ، ولما كان هذا أحسن فى التحاور كثر قولهم فى القسم : لعمرك ولعمر أبيك أو وجدك وبعزتك ، وأمثالها . وهذه الكلمات التى ذكرنا كثر استعمالها للقسم فلا حاجة الى نقل السند لها . ولكن يهمنا فى هذا القسم النظر الى أمور : الاول أن المقسم به فى هذه الاقسام ، وان كان عند المتكلم كريماً ومضنوناً به ، لكنه لا يكون مما يعبده ويقدسه كما سترى فى أقسام دينية نذكرها فى الفصل التالى . الثانى : أنه اذا أضيف المقسم به الى المخاطب دل على اكرامه كقوله تعالى « لعمرك انهم لفى سكرتهم يعمهون » فاكرم الله نبيه بهذا الخطاب ومنه قوله تعالى « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك » واذا أضيف الى المتكلم دل على عزته ومنعته كأنه قال: ان حياتى وعزى منيع لا يرام . ومن هذه الجهة لا ينبغى هذا القسم لعباد الله الخاشعين المتواضعين ولعل المسيح أشار الى هذا الامر حيث قال عليه السلام فيما نهى عن الحلف مطلقاً « لا تحلف برأسك لانك لا تقدر أن تجعل شعرة واحدة بيضاء أو سوداء » . الثالث : انه لما كان من بعض وجوه القسم الدعاء بالسوء على الحانث كما مر فى الفصل السادس ربما انضم بهذا النوع ذلك المفهوم كأن

الحالف قال : ان كنت كاذبا ابيد عمرى واهينت عزتى .ولا يخفى عليك مما ذكرنا أن هذا النوع من القسم لا يكون الا باضافة المقسم به اما الى المتكلم أو الى المخاطب.ولا يكون الا بالفاظه الخاصة التى ذكرناها . ولا يكون الا بامور عرف عزتها على المتكلم . فتبين أن إقسام القرآن بالذاريات والعاديات والخنس الجوار الكنس وأمثالها لايكون من هذا النوع. واعلم أن هذه الاقسام ليست من جهد ايمانهم ، وعلى الاكثر تستعمل لمحض التأكيد بمعنى أقسمت ولذلك ربما قالوا لعمر الله فلا يريدون بها تمام معناها الاصلى الا اذا ينوه كما مر فى قول ريطة السلمية والنابغة . ثم ان لهم أيمانا غليظة غير ذلك وياتيك ذكرها فى الفصل الآتى

القسم على وجه التقديس للمقسم به

(١٠) قد ذكرنا فى الفصل السادس دواعى توثيق أقوالهم فربما دعتهم تلك الدواعى الى مبالغة الاستثياق والمغالاة فيه فكانوا يجتمعون للمعاهدة بمشهد معابدهم وبذلك خلطوا بالقسم جهة دينية وأرادوا به جعل الرب شاهداً على قولهم فان كذبوا فيما أقسموا عليه أسخطوه ، ولما كانت دائرة حكومتهم ضيقة ،ولم تفرق الامم المتجاورة حدود فطرية كالجبال الشامخة والبحور المتلاطمة لم يمنع الجيران عن الاقتتال غير المعاهدة فصارت هى أحصن معاقلهم وربما اتفقت أقوام لم تجمعهم أواصر القرابة على خلاف عدو فعاهدوا على التعاون فاىما كان من سلم أو حرب اذا عظم أمرها فزعوا

الى العهد ، ولذلك ترى ابراهيم عليه السلام لما هاجر قومه وسكن فى بلاد العرب ورآه أبو ملك ذا باس ومنعة هابه واستعظمه فعاهد به على رسم خاص لكيلا تكون بينهما حرب وصارا حليفين بهذه المعاهدة . والتاريخ شاهد بعظم مكانة المعاهدة فى التمدن حتى ترى الآن اعتصام الامم العظيمة بها فاعظم بمكانتها فى أمم قديمة بنيت على الانفة والقهر والتطاول، بل الناس اليوم كما كانوا بل هم أسوأ لما جمعوا القهر والاستطالة بالخدع والكذب وصاروا قليلى الاعتماد على العهود ، ومع ذلك يتشبثون بها ويقسمون عند القضاة والولاة بالله تعالى وبشعائره ، فاجدر بأقوام قديمة أغلب خلالها الصدق أن يعتمدوا على العهدويجعلوه بناء لتعايشهم ويشيدوه بما ليس فوقه شيء فلذلك تراهم يجتمعون عند أنصابهم وهيا كلهم لتوثيق عهودهم باشهاد آلهتهم على مواثيقهم . والعرب فى زمان جاهليتها كانت كاحدى هذه الامم بل هى أشدهم بأساً وألدهم خصاما ، كما أنها أبرهم ميثاقا وأوفاهم ذماما . وكانت الكعبة أعظم معاهدهم وحرماتها أكبر وازعلهم عن الحرب فتطفأ نارها فى شهور الحج ، ويأتون الى الكعبة من كل فج محرمين راهبين مختلطين فى غاية الامن كالخرفان بعد أن كانوا اسوداً ضارية فيلاقى العدو العدو من غير خوف حتى أنهم سموا مكة صلاحا وأم الرحم ، فاذا حاولوا توثيق عهد جاءوا الى هذا المعبد ليقسموا بالله العظيم على مواثيقهم . ومن شركهم ربما أقسموا عند أنصابهم التى ذبحوا عليها لشفعائهم عند الله الاكبر ، وكانوا يقسمون : اما باهراق دم القربان ،أو بمسح الكعبة كما ستعلم مما ذكروا فى أشعارهم ،أو بغمسهم أيديهم فى عطر ومسح الكعبة

بها كما ترى فى حلف المطيبين الذى كان قبيل البعثة حين أرادت بنو عبد مناف أن يجمعوا أمرهم فوضعوا جفنة طيب لأحلافهم عند الكعبة، فغمس القوم أيديهم فيها ثم مسحوا بها الكعبة فسموا المطيبين وكان النبي ﷺ وأبو بكر رضى الله عنه منهم . أو بمجرد شهودهم عند البيت وعقدهم أيمانهم لديه فهذا أصل قسمهم الديني، ثم توسعوا فاكتفوا بمجرد ذكر الكعبة ومشاعر الحج كما سترى التصريح به فى بعض هذه الامثلة التى نذكرها . قال زهير بن أبي سُلمى :

فأقسمت بالبيت الذى طاف حوله رجال بنوه من قريش وجُرهم

وقال أيضاً :

فتجمع أيمن منا ومنكم بمقسمة تمور بها الدماء

وقال أعشى قيس :

فانى وثوبى راهب الحج والتى بناها قصى وحده وابن جرهم

وقال أيضاً :

حلفت له بالر قصات الى منى اذا محرم خلفته بعد محرم

وقال الحارث بن عباد :

كلا ورب الراقصات الى منى كلا ورب الحل والاحرام

وقال النابغة الذبيانى :

فلا لعمر الذى مسحت كعبته وما هريق على الانصاب من جسد

والمومن العائذات الطير تمسحها ركبان مكة بين الغيل والسعد

ما قلت من سيء مما أتيت به اذا فلا رفعت سوطى الىّ يدى
اذاً فعاقبنى ربى معاقبـــــة قرت بها عين من يأتيك بالفند

وقال شأس أخو علقمة الفحل :

حلفت بما ضم الحجيج الى منى وما شج من نحر الهدىّ المقلد

وقالت غنية الاعرابية تصف ابنها :

احلف بالمروة يوماً والصفا انك خير من تفاريق العصا

وأما حلفهم بالانصاب فمنه قول المهلهل :

كلا وأنصاب لنـا عادية معبودة قد قطعت تقطيعا

وقول طرفة :

فأقسمت عند النصب أنى لهالك بملتفة ليست بغبط ولا خفض

وقول المتلمس :

اطردتنى حذر الهجاء ولا واللّٰه والانصاب لا تئل

وقال رُشيد بن رميص الغزى :

حلفت بمائرات حول عوض وانصاب تركن لدى السعير

أى حلفت بدماء جاريات . والقسم بالانصاب قليل جداً فكان جل أقسامهم المؤكدة بالكعبة ومشاعر الحج . فان العرب مع اختلاف دياناتهم فى الجاهلية لم يختلفوا فى تعظيم هذا البيت العتيق وعلموا أنه أول بيت اللّٰه الذى وضع للناس حتى أنك ترى النصارى منهم كانوا يقسمون به قال عدى بن زيد وقد تنصر فى الجاهلية :

سعى الأعداء لا يألون شرا عليك ورب مكة والصليب

وقال الأخطل وكان مجاهراً بنصرانيته:

حلفت بمن تساق له الهدايا ... ومن حلت بكعبته النذور

وقال أيضاً:

لقد حلفت بما أسرى الحجيج له ... والناذرين وماء البدن فى الحرم

وقال أيضاً:

انى حلفت برب الراقصات وما ... أضحى بمكة من حجب واستار

وبالهدىّ اذا احمرّت مذارعها ... فى يوم نسك وتشريق وتنحار

فترى مما ذكرنا أنهم اذا اجتهدوا بالقسم حلفوا بالكعبة ومشاعر الحج. وبذلك جاء التصريح منهم، قال حسان بن ثابت الأنصارى فيما قال قبل اسلامه:

انى ورب المخيسات وما ... يقطعن من كل سربخ جدد

والبدن قد قربت لمنحرها ... حلفة بر اليمين مجتهد

وقال عارق الطائى:

فأقسمت جهداً بالمنازل من منى ... وما سحقت فيه المقادم والقمل

وبقى ذلك فى الاسلام. قال الفرزدق:

ألم ترنى عاهدت ربى واننى ... لبين رتاج قائماً ومقام

على حلفة لا أشتم الدهر مسلما ... ولا خارجاً من فىّ زور كلام

وقال الحطيئة:

لعمر الراقصات بكل فج ... من الركبان موعدها مناها

فتلك جل أقسامهم الدينية ولا يخفى عليك انهم لم يريدوا بها الا إشهاد

الاله المعبود الذى جعلوه شاهداً وبذلك جعلوه وكيلا وكفيلا على العقود. ومرادهم أنهم ان كذبوا بعد ذلك أسخطوا الله كما صرح به النابغة فى أبيات مرت فى هذا الفصل . وأما مراد الصلحاء من اشهاد الله تعالى فليس الا اعتمادهم وتوكلهم على ربهم واظهار جدهم فى شهاداتهم كما سترى فى أمثلة تجدها فى آخر هذا الفصل . وانما ذكرت العرب فى ايمانهم الكعبة والنحر عندها ومسحها تأكيداً لمعنى الاشهاد وإشارة الى طريق قسمهم بالاله عند بيته ولذلك ترى زهيراً يسمى المنحر « مقسمة » وانه هنالك تجمع ايماننا واذا كان القسم بمحض اسم الرب عاماً لا ينتبه له يينوه بذكر أصله وصوروه ببيان شكاله ليكون أوقع فى القلب . وهذا المراد الذى فهمنا من أحوالهم واشعارهم يؤيده تصريحهم باشهاد الله تعالى فى ايمانهم فيقولون « والله شهيد »، « والله يعلم » أو ما يشبهه كما قال عمرو بن معدى كرب :

الله يعلم ما تركت قتالهم ... حتى علوا فرسى بأشقر مزبد

وقال الحارث بن عباد :

لم أكن من جناتها علم الله ... وانى بحرّها اليوم صال

أو كما صرح النابغة الذبيانى فى ذكر قصة الحية وحليفها الذى لدغت ابنه فمات ثم صالحته على أن تعطيه دية ابنه فلما كاد الرجل أن يستوفى الدية هم بقتلها ولكن وقاها الله ضربته فحينئذ دعاها للعهد مرة أخرى فذلك يذكر النابغة بقوله :

فقال : تعالى نجعل الله بيننا ... على ما لنا أو تنجزى لى آخره

فقالت يمين الله افعل اننى ... رأيتك مسحوراً يمينك فاجره

أو كما صرح به النبي ﷺ فى خطبة البلاغ فقال بعد ما بلغهم عوازم الأمور «ألا هل بلغت اللهم اشهد» فجعل الرب شاهداً على ما عاهدهم به. أو كما قال حين رجع اليه ابن اللتبية الأزدى وقد استعمله على الصدقة وأخذ الهدايا فأسخط النبي ﷺ فبعد ما أخبرهم النبي بتبعات الغلول رفع عليه السلام يديه الى السماء وقال « اللهم هل بلغت » ثلاث مرات. فهذا رفع اليد كان لاشهاد الله تعالى على ما قال كأنه قال اللهم اشهد. وهكذا نرى اشهاد الله برفع اليد الى السماء فى قصة ابراهيم عليه السلام. جاء فى سفر التكوين ص ١٤ عدد ٢٢ « فقال ابرام (ابراهيم) لملك سدوم رفعت يدى الى الرب الاله العلى مالك السماء والأرض، ٢٣ لا آخذن لا خيطاً ولا شراك نعل ولا من كل ما هو لك » أى أقسمت بالله على ذلك وأشهدته وعاهدته. ورفع اليد فى الصلاة للعهد والشهادة وتفصيل ذلك فى كتاب أصول الشرائع. أو كما صرح به القرآن فى غير موضع وقد مر أمثلته فى الفصل الثامن

وجملة الكلام أن الأيمان الدينية أيضا أصلها الاشهاد وانما اختلط بها معنى التعظيم من جهة المقسم به لا من جهة محض الاشهاد الذى هو أظهر معنى القسم بالشيء. ويتضح هذا الأمر من نوع آخر من أقسامهم التى أشهدوا فيها بالمقسم به على وجه الاستدلال لا غير وهو مسلك لطيف من البلاغة، ونذكره فى الفصول الآتية

القسم على وجه الاستدلال بالمقسم به

(١١) قد تبين مما ذكرنا أنهم كانوا يقسمون بالشهادة من أنفسهم أو

بالشهادة بالله تعالى واذ كانت الشهادة بالله أكبر الشهادات كثر القسم بها ، ولذلك ظن من قلّ التفاته الى أساليب الكلام وفنون بلاغته أن الاشهاد لا يكون الاّ بالمعبود وعلى جهة التعظيم ، ولكنك اذا سرحت النظر فى كلام العرب وغيرهم وجدت أنهم ربما اشهدوا بأشياء لم يعبدوها ولا عظموها وانما أرادوا الاستدلال بجعل المقسم به شاهداً على أقوالهم بل ربما تجمع جهة الاستدلال بالأقسام الدينية أيضاً وسيأتيك ذكره فى الفصل الخامس عشر . وأما هاهنا فانما نذكر أمثلة القسم الاستدلالى ونوضح مفهومه . فمنها ما قال أبو العربان الطائى يمدح حاتماً الجواد :

قد علموا والقدور تعلمه ومستهل الغرار مطرد
أن ليس عند اعترار طارقها لديك الا استلالها مدد

ومنها ما قال الراعى :

ان السماء وان الريح شاهدة والأرض تشهد والأيام والبلد
لقد جزيت بنى بدر ببغيتها يوم الهباءة يوماً ما له قود

ومنها ما قال النابغة الذبيانى :

والخيل تعلم أنّا فى تجادلنا عندالطعان أولو بوسى وانعام

ومنها قول عنترة :

والخيل تعلم والفوارس اننى فرقت جمعهم بطعنة فيصل

فقد رأيت فى هذه الأمثلة أنهم أشهدوا بالقدور ، والمدية ، والسماء والريح ، والأرض ، والأيام ، والبلد ، والخيل ، والفوارس . وليس المراد الا أنك لوسألتهن ونطقن لشهدن على دعوانا

ومن هذا الأسلوب ما قال الفضل بن عيسى بن ابان فى وعظه : « سل الأرض فقل من شق انهارك و غرس أشجارك ، وجنى ثمارك . فان لم تجبك حوارا ، أجابتك اعتبارا » ولعل هذا الكلام مأخوذ من صحف أيوب عليه السلام ، قال ص ١٢ عدد ٧ـ ١٠ « فاسئل البهائم فتعلمك ، وطيور السماء فتخبرك ، أو كلم الأرض فتجيبك ، ويحدثك سمك البحر من لايعلم من كل هؤلاء أن يد الرب صنعت هذا الذى بيده نفس كل حى وروح كل انسى » ومثل هذا ماجاء فى صحف موسى عليه السلام سفر التثنية ص ٣٠ عدد ١٩ « اشهد عليكم السماء والأرض قد جعلت قدامك الحياة والموت ، البركة واللعنة ، فاختر الحياة لكى تحيا أنت ونسلك » فأراد بهذا الاشهاد أن عهدى هذا بكم لا يؤخذ سراً بل نجعله مشهوداً ومشتهراً فان نقضتموه لزمكم عاره دائماً أبداً فتى ما أظلتكم السماء وأقلتكم الغبراء جاءتكم اللعنة والعذاب من فوقكم وتحتكم فضرب السماء والأرض مثلا لدوام العهد ولزوم ذلة النقض، فكأنه عليه السلام أقام عليهم شاهدين لا يفلتون منهما أبداً وآيتين لا تغربان عنهم

ومما يجلو الشبهة عن القسم الذى يشهد فيه بما ينطق بلسان الحال انهم كما أشهدوه بكلمة « يشهد » و « يعلم » أو ما يشبههما فكذلك أشهدوه بكلمات خصت بالقسم أو نصت له مثل واو القسم ولعمر أو ما يشبهها . فان لم يطمئن قلبك بالأمثلة السابقة فدونك أقساماً صريحة بأمور ناطقة بلسان الحال . فمنها قول عروة بن مرة الهذلى :

وقال أبو أمامة يالبكر فقلت ومرخة دعوى كبير

يستهزئ الشاعر بأبي أمامة على استغاثته بقبيلة بكر . فقال هذه دعوى كبيرة أي ما أصغر من يدعوهم لنصره فأقسم بشجرة صغيرة لا تؤوى من يلوذ بها وضربها مثلا لأضعف الأشياء ملاذا . ويتضح هذا المعنى مما قال أبو جندب الهذلى :

وكنت اذا جار دعا لمضوفة اشمر حتى ينصف الساق مئزرى
فلا تحسبا جارى لدى ظل مرخة ولا تحسبنه فقع قاع بقرقر

ومنها قسم المهجرس حين قتل جساساً قاتل أبيه فقال « وفرسى وأذنيه ، ورمحى ونصليه ، وسيفى وغراريه ، لايترك الرجل قاتل أبيه وهو ينظر اليه » فأقسم بهذه الأشياء استدلالا بها كأنه قال فكيف أترك قاتل أبى وأنا قادر على الكر والفر والطعن والضرب فذكر فى قسمه ما يصدق دعواه ويستدل به على وجوب ما أراد به

ومنها قسم طرفة :

وقربة ذى القربى وجدك اننى متى يك أمر للنكيثة أشهد

أراد أنه كيف لايشهد مجلس ذوى القربى اذا اجتمعوا لأمر كبير ولا يراعى منزلة الرحم وهى عظيمة عندهم وكانوا ينشدون بالله والرحم فأقسم بها استدلالا على لزوم مشهده . ومنها قول الحصين بن حمام يرثى نعيم ابن الحارث خليله :

قتلنا خمسة ورموا نعيما ، وكان القتل للفتيان زينا
لعمر الباكيات على نعيم لقد جلت رزيته علينا

فلم يقسم بالباكيات الا لأن حالهن يشهد على جلالة هذه الرزية .
وهذا النوع من القسم وان لم يكثر فى كلامهم لدقة مذهبه ولغلبة أقسام أخر ولكنه طريق واضح وأسلوب خاص يجمع أبواباً من البلاغة كما سيأتيك بيانها فى الفصل السابع عشر . ويوجد فى العرب والعجم ونذلك على عمومه بإيراد بعض الأمثلة من كلام اليونانيين

القسم على وجه الاستدلال

فى كلام ديماستنس أعظم بلغاء يونان

(١٢) كانت اليونان فى أول أمرهم على حرية كاملة لم يملكهم ملك بل يدور أمرهم على الجمهورية ، حتى نشأ فيهم فيلبوس أبواسكندر الاعظم فتملك عليهم ولكن لم يستقر حكمه الا بعد مشاجرات بالجمهور وكان يحرضهم عليها أعظم خطبائهم ديماستنس الشهير فلما هزمهم فيلبوس قام هذا الخطيب على أهل أثينة وهى عاصمة بلادهم ، وألقى عليهم خطبته الطنانة بسليهم على هزيمتهم ويمدحهم على القاء نفوسهم الى الهلاك لابقاء حريتهم ، وكان خطيب آخر يسمى اسكنس يمنعهم عن مخالفة الملك فقال ديماستنس راداً على اسكنس ومادحا أهل أثينة :

« أيها الأثينون انكم لم تكونوا على الباطل حين خاطرتم بنفوسكم فى القتال عن حرية يونان وسلامتها ، وفى ذلك لكم أُسوة فى أسلافكم ، فانهم لم يكونوا على الباطل : الذين قاتلوا على مراثن ، الذين قاتلوا على

على سلامس ، الذين قاتلوا على فلاطى . انكم لم تكونوا على الباطل . كلا ، لم تكونوا . أقسم بالذين خاطروا بنفوسهم على معركة مراثن ، الذين من أسلافكم ألقوا بنفوسهم الى الهلاك على ميدان مراثن ، الذين كانوا فى الحرب البحرية عند سلامس وارطميسيم والذين كافحوا الاعداء على فلاطى. فيا اسكنس ان أهل البلد لم يكرموا الفائزين منهم فقط بل أكرموهم أجمعين باكرام جنازتهم اكراما جمهوريا »

يعنى لم يكرموهم على فوزهم بل على محاماتهم واستماتهم للحرية ، فكذلك أنتم وان لم تفوزوا فقد بذلتم نفوسكم للدفاع عن الحرية

فانظر فى هذا القسم كيف مثل أسلافهم وفعالهم بين أيديهم ليملأ قلوبهم بالفخار المسلم عندهم فضرب لهم مثلا وجعل حسن مساعيهم شاهداً على حسن مسعاة المخاطبين . وأخرج الكلام مخرج القسم الذى بنى على التأكيد . واشتهر هذا القسم لبلاغته واستجاده السلف والخلف من الناقدين . ولكن أرى المتأخرين منهم أخطأوا كما أخطأ علماؤنا فان لانجنوس اليونانى الذى نشأ بعد ستمائة من ديماستنس وكان معلماً للبلاغة فى أثينة ومشهوراً بغزارة العلم فى زمانه ، ذكر هذا القسم فى كتابه على البلاغة وقال فيه ان حسنه فى غاية تعظيم المقسم بهم فان ديماستنس جعلهم بمنزلة الآلهة وانكر على من قال ان هذا الاسلوب مأخوذ من قول الشاعر بوليوس الذى أقسم باكليله . وانى أذكر قسم بوليوس أيضاً ليكون مثالا ثانياً ولتعلم أن الرأى الذى أنكره لانجنوس هو الرأى القويم

القسم على وجه الاستدلال

فى كلام بوليوس الشاعر اليونانى

(١٣) كان من سنن يونان فى زمان حريتهم أنه اذا فعل أحد منهم أمراً عظيما نافعاً لهم عصبوا برأسه اكليلا تشريفاً لقدره واعترافا بحقه، وكان الشاعر بوليوس نال منهم هذا الاكرام فى حرب مراثن لما أبلى بلاء حسناً. ثم بعد ذلك اتهمه بعض حساده بانه ساخط بالقوم ليزرع بهذه التهمة بغضه فى قلوبهم فازاح بوليوس هذا الظن عن نفسه بقول ترجمته:

لا واكليلى الذى نلت لدى مراثنا
لا يرانى شامت أضمر سخطا كامنا

فاقسم باكليله الذى ناله من أيدى قومه استدلالا على عدم سخطه بهم كأنه قال كيف أسخط على قومى بعد أن أكرمونى بهذا العز. فنرى فى هذا المثال كما رأينا فى أمثلة أخر أن القسم لايختص بالاله وبذلك ينهدم ما بنى عليه لانجنوس رأيه وتبين لنا أن من جعل قسم ديماسنس مشابها بقسم الشاعر بوليوس أصاب المراد فانهما استعملاه على وجه الاستدلال وضرب المثال وليس المراد منه تعظيم المقسم به فان كان المقسم به فى نفس الامر عظيما فهذا من محض الاتفاق ولا يتعلق به غرض القسم. محض القسم ساكت عن عظمته ألا ترى عروة بن مرّة الذى مرّ شعره فى الفصل الحادى عشر كيف أقسم بالمرخة وضربها مثلا لغاية الذلة والضعف

شرح دلالات القسم الاستدلالى

(١٤) بعد ما وقفت على أمثلة القسم الاستدلالى من النثر والنظم والعرب والعجم وتبين لك أنه أسلوب خاص من البلاغة نريد أن نجمع لك فى هذا الفصل ما فيه من الدلالات الاستدلالية التى ذكرناها فى الفصول السابقة أشتاتا نتفهمها كل الفهم فان ذلك من مهمات مباحث هذا الكتاب ثم تجد زيادة عليه حين نذكر ما فى القسم من أبواب البلاغة فاعلم أنهم اذا شهدوا على وجه الاستدلال ربما أرادوا به شدة وضوح المقسم عليه كما ترى فى قول الراعى :

ان السماء وان الريح شاهدة　　والارض تشهد والايام والبلد

يعنى ان الامر بلغ غاية الشهرة والمعرفة حتى أن كل شىء يشهد به فذهب فى آفاق السماء وأقطار الأرض وجرت به الريح فى كل جانب وبلغ كل بلد وكفلت الايام بابقائه على صفحات الدهر . وغاية التأكيد فى أن هذه الأشياء التى لاروح لها تشهد به فكيف بأهل السمع والبصر والنطق

وهذا بحسب الظاهر مبالغة ولكنه بنى على الصدق فان المراد به غاية الشهرة وعموم العلم به ويشبه ذلك ما مر من قسم موسى عليه السلام حيث أشهد السماء والأرض . وربما أرادوا به ضرب مثل على وجه التشبيه ادعاءً من المتكلم كما ترى فى قسم عروة بن مرة فانه ضرب المرخة مثلا بقبيلة بكر التى استغاث بهم أبو امامة فشبههم بالمرخة وهذا محض الادعاء ،

ولكن الدعوى اذا كانت بطريق الاشارة يتلقاها المخاطب بالقبول مثلما تراه فى التشبيه والكناية كما يبنوه فى كتب المعانى و نرجع الى هذا البحث فى الفصل السابع عشر ان شاء الله تعالى . وربما أرادوا به تأييداً للقول فاشهدوا بالمقسم به لكونه مؤكداً للمقسم عليه كما ترى فى قول بوليوس فانه أشهد بأكليله الذى أكرمه به قومه وهو أقصى الغاية عندهم فى التعظيم فكأنه قال فى رد قول مخالفه انى بعد هذا الشرف الدائم كيف يظن بى أنى أسخط بهم . وكان فى هذا الاستدلال ضعف فانه يمكن لمخالفه أن يقول أنت مع هذا الاكرام العظيم تبدلت وصرت جاحدا نعمة فاكد قسمه بالاكليل بذكر شرف نفسه فقال انى اقتنيه فى أشهر حروبهم التى بدت فيها منازل سراة القوم فكنت فيها من الطراز الاول . فبعد هذا التأكيد لم يترك لخصمه الا محل حسود يسىء الظن بالكرام ولكن فى هذا الاستدلال لا يتم التقريب بين الدعوى ودليلها . وربما أرادوا به حجة قاطعة على قولهم بذكر أمر جامع بين المقسم به والمقسم عليه كما ترى فى قسم ديماستنس فانه ذكر حسن فعال أسلاف المخاطبين وهم لا يشكون فيه واحتج به على حسن فعال الذين اتبعوا أسلافهم ولذلك صرح أولا « بأن لكم اسوة فى أسلافكم » وهذا لعمرك أحسن وجوه هذا النمط من القسم

الادلة المأخوذة من نفس القرآن

على ما فيـــه من الاقسام الاستدلاليـــة

(١٥) بعد ما تبين لك أن القسم أصله الاستشهاد وأنه لا يراد منه التعظيم الا اذا كان بالله تعالى وبشعائره، وعلمت أنه ربما يكون لمحض الاستدلال لا يخفى عليك أن أقسام القرآن التى بنى عليها المعترض الشبهتين الاخيرتين ليست الا للاستدلال والاشهاد بالآيات الدالة فان قال قائل هب أن أصل القسم هو الاشهاد ولكنه لكثرة استعماله للتعظيم صار كالمنقول وأصله كالمذهول ولذلك نهى عن القسم بغير الله تعالى فلا يصار الى الأصل الا بدليل واضح بين. قلنا سلمنا ولكنا لم نذهب الى هذا المعنى الخاص لأقسام القرآن الا بدلالة القرآن من وجوه كثيرة ودونك بيانها: الأول ما علمنا من سنة القرآن من استعماله بعض الكلمات مرة للعبد وأخرى لله تعالى. وحينئذ يميز بين وجوهها حتى لا يكون مخالفاً بجلالة ربنا جلت عظمته مثل كلمة الصلاة فانها الدعاء من العبد والرحمة من الله تعالى وكلمة الشكر فانها من العبد الاعتراف بالنعمة ومن الله تعالى قبوله الحسنات من عبده، وهكذا التوبة، والسخط، والمكر، والكيد، والأسف، والحسرة وغيرها. بل ما من كلمة الا يميز بين وجوه معانيها اذا استعملت لله تعالى. ويؤخذ بأحسنها ويترك مالا يليق بذاته المقدسة. وقد علمنا الوجوه الكثيرة للقسم فحملناه على وجه يليق بجلالة ربنا وأخذنا بما « هو خير وأحسن تأويلا ». والثانى ما تهتدى اليه من حمل النظير على

النظير وتفسير الآيات بعضها ببعض فانك ترى القرآن يذكر الأمور الدالة تارة على أسلوب القسم بها وأخرى على أسلوب الآية والعبرة وكلها اشهاد لمن يتفكر فيها. قال تعالى « ان فى خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار، والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون » ومثل هذا كثير فيذكر الله تعالى آياته ويحتج بها. ثم ترى هذه الآيات أشهد بها القرآن على أسلوب القسم فأشهد بالسماء والأرض والشمس والقمر، والليل والنهار، والفجر، والضحى، والريح والسحاب، والجبال، والبحر والبلد، والانسان والوالد والولد، والذكر والانثى، والشفع والوتر. فكونها آيات دالة له نظير ولا سبيل الى ارادة تعظيمها.

والثالث ما يدلك عليه نفس المقسم به فان العاقل لا يتوهم أن الله تعالى يضع مخلوقاته موضع المعبود المقدس لا سيما الذى ليس له كبير تقدس كالخيل العادية والريح الذارية وقد صرح القرآن بكون هاتيك المقسم بها من السماء والأرض والشمس والقمر والنجوم وغيرها مسخرة مذللة طائعة ففى نفس القسم بها دلالة على أن المراد محض الاشهاد بها. والرابع ما ترى من المناسبة الظاهرة بين المقسم به والمقسم عليه فان القرآن وضع أكثر هذه الأقسام بحيث لا يخفى على العاقل جهة دلالتها على ما أقسم عليه ولذلك ترى صاحب التفسير الكبير رحمه الله مع ظنه بأن القسم للتعظيم وتكلفه لبيان فضائل التين والزيتون لم تخف عليه جهة عامة فى

دلالة الأقسام التى جاءت فى اول سورة الذٰريٰت فقال « انها كلها دلائل أخرجها فى صورة الأيمان » ولو تأمل فى سائر أقسام القرآن التى جاءت على وجه الاستدلال لاختار هذا التأويل فى جميعها . والخامس ما ترى من تعميم المقسم به على طريق تعميم الآيات الدالة كما قال تعالى « فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون » فلم يترك شيئا الا وقد أقسم به كما قال « وانْ من شيء الا يسبح بحمده » فلم يترك شيئا الا وقد أنطقه بحمده وأشهده بمجده . ويشبه هذا التعميم استعمال المتقابلين حيث أقسم بالليل والنهار والارض والسماء ، فكيف يظن أن الله عظّم كل شيء والسبيل الى جعله آية دالة ظاهر فلا يصار الا اليه . والسادس : ما يتبع المقسم به من التنبيه على كون المقسم به دليلا للعقلاء كما قال تعالى «والفجر وليال عشر ، والشفع والوتر والليل اذا يسر هل فى ذلك قسم لذى حجر» فهذه الجملة الاخيرة مثل ما تجد كثيراً فى القرآن بعد ذكر الدلائل كما جاء فى سورة النحل « ان فى ذلك لآيات لقوم يعقلون» أو كما جاء فى سورة طه « ان فى ذلك لآيات لاولى النهى » أوكما جاء فى سورة آل عمران «ان فى ذلك لعبرة لاولى الابصار » وهذا كثير . فهكذا هاهنا بعد ذكر الاقسام نبه على كونها دلائل لذى عقل وبصيرة ويشبه . ذلك ماجاء من التنبيه بعد القسم فى سورة الواقعة حيث قال « فلا أقسم بمواقع النجوم وانه لقسم لو تعلمون عظيم » أى ان فيها دلالة عظيمة وشهادة كبيرة فصرح بعظمة القسم لا بعظمة المقسم به . والسابع ما ترى فى ذكر المقسم به على صفة خاصة تشير الى جهة الاستدلال كقوله تعالى « والنجم اذا

هوى » وقوله تعالى « فلا أقسم بالخنس الجوارى الكنس » وقوله تعالى « والصّٰفّٰت صفا فالزاجرات زجرا فالتاليات ذكرا » وقوله تعالى « والذٰريٰت ذروًا فالحاملات وقرًا فالجاريٰت يسرًا فالمقسمٰت أمرًا » وقوله تعالى « ولا أقسم بالنفس اللوامة » وغيرها فهوىُ الثريا وخنوس النجوم وصف الملائكة وذرو الرياح وتقسيمها الامور وملامة النفس أقرب الى الاستدلال منها الى التعظيم . والثامن ما يسبق المقسم به من صريح ذكر الآيات الدالة ثم يعبر عن المقسم به على وجه يشير الى تلك الآيات كأنه مهد من قبل لما اريد من وجه الاستدلال وهذا مما يهتزّ له المتدبر فى نظم القرآن . ويتضح ذلك بالمثال قال تعالى فى سورة الذٰريٰت « وفى الأرض آيات للموقنين وفى أنفسكم أفلا تبصرون ، وفى السماء رزقكم وما توعدون » أى ان لكم فيهن آية على الربوبية والدينونة كما فصل ذلك فى غير موضع من القرآن فبعد ما ذكر أن الأرض والسماء قد اشتملت على آيات الجزاء بل على نفس الجزاء جاء بقوله « فورب السماء والأرض انه (أى الدين والجزاء وليس المراد به القرآن كما توهموه) لحق مثلما أنكم تنطقون » فلا يخفى أن هذا القسم مع دلالته على التقديس لكونه اشهاداً بالله تعالى قد تضمن الاستدلال بآيات فى الارض والسماء لما عبر عن المقسم به على صفة تشير الى ما سبق من صريح الاستدلال بالآيات الدالة ولما كان وجه التعظيم فى هذا القسم أظهر وكاد يشغل عن وجه الاستدلال حسن التمهيد له من قبل . وفى هذا القدر كفاية ان شاء الله تعالى . فان سأل سائل كيف خفى الصواب على العلماء أم كيف يطمئن القلب بهذا القول المبتدع أجبناه بما نذكره فى الفصل الآتى

بعض أسباب خفاء الوجه الصحيح

فى تأويل أقسام القرآن

(١٦) مما ذكرنا من أقوال العلماء فى الفصول السابقة نرى أن هذا المعنى للقسم ليس ببدع بيد أنه خفى عليهم بعض وجوهه ومعانيه فلم يتمسكوا به كل التمسك فاما ان تركوه فى بعض المواضع واما خلطوا به معنى آخر . ولنذكر هنا بعض أسباب الخفاء ليظهر عذرهم . فالسبب الأول : أنه فى بعض المواقع كان المقسم به فى نفسه شريفاً مثل القرآن والطور ومكة ، أو الشمس والقمر والنجوم ، أو العصر والليل والنهار ، فلم يحتاجوا الى جعل الاقسام به استدلالا وقد ظنوا أن القسم بالشريف العظيم عام شائع . فاذا وجدوا المقسم به ذا احتمالات أخذوا منها ما يشبه بالشرافة وبهذا السبب منعوا عن التعريج الى السمت الصحيح وذهبوا من القسم فى مذهب عام كما أن الماء يجرى الى الخفض ان لم يصرفه صارف . والسبب الثانى : أن الحكماء تجعتهم الامور الكلية فلا يعجبهم رأى ينخرم بعض جوانبه : ووجه الدلالة فى الأقسام مع ظهوره فى بعض الامثلة كان خفياً فى بعضها ولما لم يتبين لهم وجه الدلالة فيه زعموا أن هذه الكلية لا تصح ها هنا وليس من دأب أكثرهم أن يقروا بالعجز ويحولوا العلم الى الله تعالى كما ترى ذلك فى مسألة نظم القرآن فانه ظاهر واضح فى أكثر المواضع ولم يشكل كل الاشكال الا فى قليل فلو اعترفوا بالجهل كما فعل

بعضهم لكان حريا بهم ولكن تراهم لم يعتمدوا على وجود النظم وانما أرادوا بذلك أنه ليس كلياً فظن العوام أن لا نظم فى القرآن وكلها اقتضاب والصواب أن نتحرى فى كل أمر ما هو الاولى والاحسن وقد دلت عليه دلائله وبدت مخايله ونرجح جانبه وتوضح لاحبه ونكون كما قال تعالى « الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الالباب » فان أشكل علينا بعض وجوهه نسبناه الى قلة علمنا وسيجعل الله يسراً بعد عسر وجبراً بعد كسر والعلوم متزايدة ، والله يهدى من يشاء . فمحض غموض جهة الاستدلال فى بعض الاقسام لايصرفنا الى رأى باطل مع سخافته . ألا ترى الآيات الدالة ليست كلها ظاهرة الدلالة بحيث لا تحتاج الى تأمل والقرآن صرح بذلك وندب الى التفكر والتدبر فيها بل صرح بأنها لا يفهمها الا العاقلون المتقون كما جاء كثيراً فى القرآن والصحف الاولى ومع ذلك لا نشك فى أنها دلائل قاطعة وحجج ساطعة فهذا التحرى هو الخطوة الاولى للتأمل واعمال العقل حتى تنحل الاشكالات ويطمئن القلب بعد العلم . وانى بحمد الله تعالى لم أطمئن لهذا الرأى الا بعد أن تأملت فى جميع أقسام القرآن حتى تبين لى أنها دلائل ولم يدلنى عليه الا القرآن من وجوه عديدة كما مر ذكرها آنفاً . والسبب الثالث : وهو مدار الاولين أنهم لما وجدوا القسم بالله تعالى وشعائره شائعاً غلب على ظنهم أن ذلك أصله فاذا وجدوا القسم بغيره جعلوه مجازاً ثم رأوا أن المجاز لا يصار اليه الا اذا تعذرت الحقيقة ولكن محض الكثرة ليس دليل الاصلية ولا المصير الى المجاز مشروط

بتعذر الحقيقة بل الصواب أن تأخذ من المعانى ما هو أحسن وأحرى وأشبه بالسياق وما له نظائر فى باب الكلام . فلما جعلوا الفرع أصلا خفى عليهم حقيقة معنى القسم بالشيء وهو الاشهاد به فقولهم فى بعض الاقسام انها دلائل لم يكن الا لشدة وضوح هذا المراد فيها كأن القرآن دعاهم بصوت جهورى وجذبهم ببطش قسورى الى صحيح معناه ومع ذلك هم على الظن الاول فلم يكن الخفاء من جهة القرآن بل من بعض الظن منهم عفا الله عنهم . والسبب الرابع : شهرة بعض أمور ذات وجوه على وجه خاص مثل قصة هلاك فرعون وقومه فان المشهور أنهم أهلكوا بمحض الماء ولا يرون فيه دخلا للريح وحقيقة الامر أنه كان من عجائب تصاريفها بأمر ربها وهكذا الامر فى طوفان نوح عليه السلام كما بيناه فى تفسير سورة والذريٰت فهما كانت المناسبة بين المقسم به والمقسم عليه منوطة ببعض هذه الوجوه خفى وجه الاستدلال على من خفى عليه ذلك الوجه ولما لم يكن تفصيل هذا القصص من مهمات العقائد والاحكام لم يلتفت اليها علماؤنا رحمهم الله تعالى . والسبب الخامس : وهو يشبه ما قبله أن علماءنا رحمهم الله تعالى شغلتهم العلوم العقلية والنقلية المشهورة عن علوم هى أكبر منها نفعاً فى التفسير وذلك هو علم لسان أوحى به الينا والى من قبلنا وتاريخ هذه الامم السامية وعلومهم وآدابهم ، واذ هى لا تختص بمسئلة القسم لانبسط القول فيها ولا حاجة الى استقصاء أسباب الخفاء فليكفنا هذا القدر منها

ذكر بعض ما فى القسم

من أبواب البـــــلاغة ولطائفها

(١٧) لعلك تقول ان كانت هـذه الأقسام دلائل لا غير فلم لَمْ تذكر على أسلوب الاحتجاج الصريح؟فاعلم أن الاستدلال اذا كان على أمور لا تتعلق بها الرغبة والنفرة مثل ما ترى فى العلوم الطبيعية والرياضية أو فى تاريخ الاولين على الاكثر كان ذكر الأدلة فيها أولى بالتصريح فاما اذا استدللنا على أمور نفسانية يتصادم فيها من القائل والسامع حث واستنكار وزجر واستكبار والحاح واصرار ، احتجنا الى ايراد الادلة على وجوه مختلفة من أساليب الكلام متفاوتة فى الوضاحة واللطافة والقوة والحدة . وربما نبدل الاسلوب لمحض الاجتناب عن ملال السامع أو الرجاء أن ينجح فيه بعض الاساليب أكثر من بعض كما صرح به القرآن « انظر كيف نصرّف الآيات لعلهم يفقهون » وكما فعل ابراهيم عليه السلام مع الذى حاجه فى ربه فترك الاصرار على الدليل الأول حين لم يفهمه الخصم وعمـد الى دليل آخر أقرب الى فهمه « فبهت الذى كفر » فهذه جملة الجواب ثم فى أسلوب القسم معان مفيدة للاستدلال مما يفتح عليه من البلاغة أبوابا ويلقى عليه من المحاسن جلباباً . ونذكر هنا بعض تلك المعانى وندلك على ما فيه من البلاغة . الأول : هو اظهار التأكيد والجد فى القول كما ترى فى قول المرسلين من النصارى حيث جاء فى

القرآن « قالوا ربنا يعلم انا اليكم لمرسلون ، وما علينا الا البلاغ المبين »
أو كما ترى فى قوله تعالى « والسماء ذات الرجع ، والارض ذات الصدع ،
انه لقول فصل ، وما هو بالهزل » وقد علموا أن الحر المهذب اذا أقسم
على أمر فقد بالغ فى اظهار الجد منه ونفى عن نفسه الهزل ، ولذلك كثر
القسم فى أوائل النبوة حتى تبين لهم جده وقد صرح فى المثالين المذكورين
وذلك لخصوصية فى أسلوب القسم لا لأن فيه تعظيما كما ترى تأكيد
الاثبات والانكار بأسلوب الاستفهام أو التعجب فى أكثر الألسنة
أو تأكيد التعجب بالنداء كقولك يا للماء « ويالقومى للشباب المبكر »

والثانى كون القسم انشاء وذلك يبهم طريق الانكار على الخصم فانه ان
شاء أنكر جواب القسم لكونه خبراً ولكن لا يسنح له أن ينكر نفس القسم
لكونه انشاء كما انه لا يتوجه الى انكار الصفة مع انهما فى الحقيقة من
الأخبار وربما يجمع أقسام القرآن هذين الخبرين كالقسم بالقرآن المجيد
وباليوم الموعود وبالمقسمٰت أمراً وبالفارقٰت فرقا وبالصّٰفّٰت صفا فان
شرحتها رأيت فيها جملتين خبريتين مثلا ان الملائكة صافون كالعبيد وان
الرياح تفرق وتميز حسب أمر الله وان لهم يوماً موعوداً وان هذا القرآن
مجيد . فهذه أخبار أدمجت فى الصّٰفّٰت ثم زيد عليها ما أدرج من القسم
وهى ان هذه الأشياء شواهد ودلائل . فان كان ذلك مما ينتبه الخصم
لانكاره فتارة يصرف الخطاب الى النبى كقوله تعالى « يٓس والقرآن
الحكيم انك لمن المرسلين » وتارة يحذف جواب القسم الذى يكون
جملة خبرية فحينئذ يكتفى بالمقسم به ويبادرهم بكلام آخر مؤيد لما حذف

لكيلا يجد الخصم فرصة لتحويل الانشاء الى الخبر فينازع فيه ولكى يجد الكلام فرصة فيه فيستمع بعد القسم لما ينتظر جوابه فيهجم عليه ما يؤيد الاستدلال المقصود من الكلام السابق ، كقوله تعالى « صٓ والقرآن ذى الذكر ، بل الذين كفروا فى عزة وشقاق » فاكتفى بالجملة الانشائية واجتناب الخبرية وقد فرغ عنها بما ذكر فى القسم من صفة القرآن كأنه قيل « قد شهد القرآن أنه لذكر ونصح لهم » ثم ذكر من خصائلهم ما لا ينكرونها بل يباهون بها وأشار الى ان انكارهم ليس الا لحميتهم الجاهلية وجدالهم بالحق . ومثل ذلك قوله تعالى « قٓ والقرآن المجيد بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم فقال الكافرون هذا شىء عجيب » أى قد شهد القرآن انه لنذير مبين من الله تعالى بالبعث ، ولكنهم ينكرونه لما يعجبون أن يأتى به منذر منهم . فأما اذا كان القسم مما لا ينكرونه لم يحذف الجواب كقوله تعالى « حمٓ والكتاب المبين انا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون » فذكر فى القسم كونه كتاباً مبيناً وفى الجواب كونه قرآناً عربياً ولا ينكرون شيئاً منهما . وأما كونه منزلا من الله تعالى فلم يخبر به كدعوى على حدة بل جعله أصل الكلام بما خاطبهم بنفسه فلا يتجه الانكار اليه . هذا ـ ولو لا كراهية الخروج عن موضوعنا لبسطنا الكلام فى حذف جواب القسم وفوائده وذكره تحت آيات القسم أولى

والثالث ايجاز هذا الاسلوب للاستدلال فان اللفظ اذا قل يتراءى المعنى متجرداً عن حجبه فيزيده تنويراً وتأثيراً كأنه أرهف حده وقرب بعده وهذا مما يجعل الاستعارة أحياناً أبلغ من التشبيه ولا حاجة الى توضيح

حسن الايجاز فانه مبسوط فى كتب البلاغة وقد بالغ فى استحسانه بعض كتاب زماننا فقال ان الايجاز لهو البلاغة ، وتكلف فى رد جميع المحاسن اليه.وانما جعله أصل البلاغة لتشعب أفنانه وتقلب ألوانه فلم يدخل باباً من أبواب البلاغة الا ورأى الايجاز هناك موجوداً فقصر النظر عليه . ومن فوائد الايجاز أنه يمكنك أن تجمع دلائل عديدة فى قرب بعضها من بعض فاذا دللن على أمر واحد من جهات مختلفة كن أشد أثراً وأحكم أمراً كما ترى فى أقسام سور الطور والبلد والتين . فلو فصل فيها الكلام وشرح الأدلة لتشتت النظام ووهنت قوته ويقرب منها أقسام سور الفجر والشمس والليل . هذا ـ والعرب لذكائهم وكبرهم كانوا يحبون الايجاز أكثر من أقوام اخر ولذلك لا ترى شيئاً من القرآن الا ومعناه أوفر من اللفظ فان أطنب قولا من وجه أوجزه من وجوه أُخر ولذلك لا تنقضى عجائبه

والرابع اشراك السامع فى استنباط الدليل : وذلك مما يكسر سورة خصامه فانه اذا علم شيئاً بعد التأمل فرح به واهتز له فان المتكلم اذا جعل السامع منفعلا محضاً أتعبه وصار كلامه عليه ثقلا وهذا اذا لم يخالف رأيه فأما اذا خالفه اشمأز منه وسد منه أذنه ولذلك ربما يستعمل الاستفهام بدل الاخبار كقولك « ألا ترى ذاك » و « هل سمعت هذا » أو كما استفهم النبي عليه السلام فى خطبة الوداع حيث سألهم أى بلد هذا وأى شهر هذا وأى يوم هذا؟ فذلك يجلب الالتفات وينشط السمع وقد جمع القرآن هذين الأمرين فى أول سورة الفجر فأشهد بأمور تدعو الفكر

الى استنباط الدلائل على تدبير الله تعالى وتقديره وعدله . ثم اتبع ذلك بقوله « هل فى ذلك قسم لذى حجر » ومثل ذلك قوله تعالى « والسماء والطارق وما أدراك ما الطارق النجم الثاقب » ورب مستدل حاذق يسوق المخاطب الى الدعوى بسهولة من غير تسفيه رأيه حتى يظن أنه هو الذى اهتدى اليها من قبل نفسه . وهذا مما يصيّر الكناية أحياناً أبلغ من التصريح . وترى ذلك بيناً فى أقسام القرآن فانها تعرض على السامع أمراً يدعوه الى استعمال عقله وربما تسوقه الى سمت الدعوى بلطافة وتدريج كالقسم بالذٰريٰت حتى انتهى الى قوله « فالمقسمٰت أمرا » ومثل ذلك قسمه بالمرسلات عرفاً حتى انتهى الى قوله « فالفارقات فرقاً فالملقيٰت ذكراً عذراً أو نذرا » فلو ألقى عليه أولا أن الرياح تفرق بين قوم وقوم أنكر ذلك

والخامس وضع الدليل فى غير صورته لكيلا يبادر المنكر الى المخاصمة وذلك غير معنى الانشاء الذى مر آنفاً فى الوجه الثانى فانه يسد باب الانكار وهذا انما يذهل عن الخصام ولكونه غير الانشاء تجده باقياً فى صورة الخبر أيضاً مثلا ان حولت قوله تعالى « والعصر ان الانسان لفى خسر » وجدت بعد هذا التحويل من الانشاء الى الخبر أيضاً فرقاً واضحاً بينه وبين صريح الاستدلال وهو أن تقول : ان الانسان لفى خسر لان مر الزمان ينقص العمر . فان هذا الاستدلال مع صحته وظهوره يدعو الخصم لحبه الجدل الى الانكار به أو بالذى ينتج منه وهو الاعتماد على الايمان والعمل الصالح فانه سيقول: كلا ، ان الانسان لفى ربح عظيم فانه

يشترى اللذائذ ويقتنى المنى بهذا العمر الذى لا بد أن يفنى . أو سيقول: كلا ، فانه اذ لا بد من البلى فالتمتع بالشهوات أولى ، كما قال الملك الضليل بن حجر القتيل :

تمتع من الدنيا فانك فان   من النشوات والنساء الحسان

ولا شك ان تلك حجة داحضة ولكن اذا فتح باب الجدال كثر القيل والقال . وكلما زدت ايضاحاً ازداد الخصم جماحاً . فيحسن أحياناً أن تذهله عن وجه النزاع ، فان للانسان به ضراوة كضراوة السباع . وكانت العرب أشد الامم جدلا وأحدهم مقولا كما قال تعالى « ما ضربوه لك الا جدلا بل هم قوم خصمون » وكذلك سماهم « قوماً لداً » واعلم أن هذا الوجه والذى قبله مبنيان على لطافة الأدلة فى الأقسام فانها كما تصرفهم عن الانكار والنزاع فكذلك تنشطهم للفكر والاستنباط

والسادس :ما يعطى أوائل السور من نضرة بهجتها ورونق ديباجتها فتلمع الأقسام فى قسمات السور على الاكثر كالغرة البارقة ، وأما الذى جاء فى أثناء السورة فانما هو قليل ومثاله كمجيء المطلع فى أثناء القصيدة . وليس فى كل قسم تزيين ولكنه لما كان مما يستفتح به الكلام جعله سبباً لتزيين الفواتح بأن اصطفى له كلما ان صور على عنوان الكتاب أو تمثل للعقل فى مطلع الخطاب ملأ العين والفؤاد بحسنه وجلالته بل يجل أكثرها عن التصوير لكمال عظمتها وضيق نطاق الخيال عن سعتها . ولا شيء من أساليب الكلام اصلح للتصوير من القسم فان الذى أقسمتَ به دعوته كالشاهد فأوقفته بين يدى المخاطب

متمثلا ، فلما أراد الله أن يوشي عنوان السور بألوان الصور بدأها بأقسام خاصة . فترى أحياناً صورة أمر واحد كالقلم الكاتب والنجم الثاقب والخيل العاديات والرياح الذاريات والملائكة الصافات . وتنظر أخرى الى صور عديدة يضمها أمر جامع بينها كالتين والزيتون وطور سينين والبلد الأمين . أو كالطور والكتاب المسطور والبيت المعمور والسقف المرفوع والبحر المسجور ، أو كالشمس والقمر والليل والنهار والأرض والسماء والنفس وغير ذلك مما يدل على أحوال أو احداث يستدل بها على مسألة مهمة ولا منزلة عند العقل لهذه التصاوير لولا أن فيها دلائل على أمور عظيمة وهذا لرعاية جانب المستمع لكيلا يتنفر فيسد أذنيه ، ومن كمال التبليغ واتمام الحجة تليين القول وتأليف القلب . وقد أمر الله الأنبياء بهذا كما قال تعالى لموسى وهارون حين أرسلهما الى فرعون « فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى »

والسابع : تقديم الدليل على ذكر للدعوى فيلقي أولا على الخصم أمراً يوجهه الى سمت لا بد أن يجابه الى الدعوى ولكن المنكر اذا علم من قبلُ ما تريد الاستدلال عليه أخذ سمتاً آخر وتنكب عن الوجه الصحيح فاذا لم تذكر الدعوى يوشك أن يتوجه الى صراط مستقيم فاذا سار على قصد السبيل قدته الى آخر النتيجة . ومثال ذلك كل ماذكرنا في الوجه الرابع والخامس

والثامن : كون القسم من جوامع الكلم فان المقسم به لا يذكر معه جهة الاستدلال فلو ضم به جهة خاصة كان دليلا واحداً ولكن الشيء الواحد يجمع معاني كثيرة ووجوهاً مختلفة وللمتوسم فيه دلائل

شتى . وهذا الامر مشترك فى ما ذكر من الامور الدالة على أسلوب الآية ، فجعل شيئاً واحداً موضعاً لاستنباط دلائل كثيرة كما قال تعالى « ألم تر أن الفلك تجرى فى البحر بنعمة الله ليريكم من آياته ان فى ذلك لآيٰت لكل صبار شكور » وكما قال تعالى « وفى الأرض آيٰت للموقنين * وفى أنفسكم أفلا تبصرون » فمن يحصى ما فى الأرض والنفس من الآيات الدالة على القدرة والعظمة والرحمة والحكمة ثم على التوحيد والرسالة والمعاد كما فصلناه فى كتاب حجج القرآن فاذا أشهد الله تعالى بعض خلقه ثم ذكر معه من المطالب الدينية التى يستدل عليها ترك المتأمل أن يستنبط الدلائل من وجوه كثيرة وبعد الاتفاق فى المستدل عليه وبعد رعاية نظام الكلام لا بأس باختلاف الدلائل وطرقه فانها تتنوع وتتكثر حسب مدارج الافهام والعقول وجعل الله القرآن جم الفوائد لا تنقضى عجائبه كما لا تنقضى عجائب خلقه وحكمة صنعه قال عز من قائل « ولو أن ما فى الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمٰت الله ، ان الله عزيز حكيم » ولنكتف بهذا القدر من أبواب البلاغة التى تجد فى أقسام القرآن وما أردت الاستقصاء ومن يطيقه ؟ . وقد تبين مما مرّ معنى القسم ووجوهه وبذلك انحسمت الشبهتان الاخيرتان المهمتان وأما الشبهة الاولى فاضمحلت أيضاً لما ذكرنا من حاجة الناس الى القسم وضرورته فى عزائم الامور وموقعه فى التعايش والتعاشر بين الامم والملوك والرعايا كما مرّ فى الفصل السادس والعاشر . وقد ورد القسم كثيراً فى الكتب المقدسة وكلام الرؤساء والبلغاء فلم يبق الآن الا تبيين علة النهى عنه

الفرق بين ما يحسن وما لا يحسن من القسم

(١٨) لما كان في القسم اما اشهاد بنفس المتكلم او اشهاد بالله تعالى وفي ذلك مخاطرة المرء بعزه وبدينه لم يحسن التلاعب به فيتجه النهي اليه من ثلاث جهات (١) اما من جهة المقسم عليه (٢) أو من جهة المقسم به (٣) أومن كليهما فاما من جهة المقسم عليه فمن حلف على أمور سخيفة أظهر عدم مبالاته بشرف نفسه ولذلك جاء في القرآن صيغة المبالغة في شناعة الحلف حيث قال تعالى « ولا تطع كل حلاّف مهين » فدل على أن من حلف على كل أمر جل أو دق فقد أهان نفسه سواء حلف بالله أو بغيره كالذي يغضب من غير سبب أو يضحك من غير عجب فهذا من جهة المقسم عليه وأما من جهة المقسم به فاذا أقسم عبد قسما دينياً بغير الله تعالى فكأنه اتخذه إلها فالمنع عن القسم بغيره تعالى على العموم سد لأبواب الشرك كالمنع عن السجدة لغيره تعالى أو كالمنع عن نحت الاصنام كما جاء في الاحكام العشرة ولذلك جاء في سفر التثنية ص٦ عدد ١٣ «الرب الهك تتقي واياه تعبد وباسمه تحلف » وهكذا نهى النبي ﷺ عن القسم بغير الله تعالى . وأما من جهة كليهما معاً فذلك أن يقسم بالله تعالى على أمور سخيفة . وهذا جمع بين قلة المروءة وقلة التقوى معاً والى هذا يشير قوله تعالى « ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم » فهذه هي الوجوه المحظورة في اليمين فاما دون ذلك فلا ينهى عنه لا سيما اذا دعت اليه دواعي المعاشرة كما ذكرنا في الفصل السادس والعاشر . وشريعتنا قد أنزلت للناس كافة

فتراعى حاجات التمدن ، وتميز بين دقائق الاحكام وتنظر الى ضعف فطرة الانسان كما قال تعالى « يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الانسان ضعيفا » فلا ينبغى فيها النهى المطلق عن أمر هو المفزع عند جد الأمر وعزائم الامور التمدنية والدينية كما لا ينبغى فيها المؤاخذة على يمين لم يتعلق بها نية المتكلم بل نطق بها على ما جرت به العادة فى التحاور فقال تعالى « لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم والله غفور حليم » وذلك بأن الاعمال بالنيات فيمين اللغو وان كانت خلاف المروءة لا يؤاخذ عليها لأن الرب غفور لعباده يرحمهم لضعفهم فلا يؤاخذ عامتهم على كل صغيرة . وهذا الذى ذكرنا يتعلق بالايمان العامة ، فأما أقسام القرآن فلكون جلها استدلالا لا مخاطرة فيها لشرف ولا دين فلا تمسها معرة ثم انها على التوحيد والمعاد والرسالة وذلك أعظم الامور جلالة فهو أجدر مايقسم عليه ، هل نفس أحد أشرف من أن يخاطر بها لهذه الشهادة أم يخاف أحد على دينه لخوف الكذب فيها ، اذاً لا دين له . أم هو يستحى من اشهاد الله تعالى على هذه الامور ثم قد شهد به الله والملائكة والعالمون فالقسم عليه محمول على حقيقة معنى الشهادة التى تبلغها الانبياء صراحة فان النبى فى عموم تبليغه يقول ان الله تعالى أرسله بعلمه ويشهد على صدقه وهو يلوذ به ويعتمد عليه ويتخذه وكيلا على ما يقول وهذه المعانى هى التى تفهم من القسم بالله كما مر فى الفصل العاشر فأى حرج ان ذكرها بأسلوب القسم . ولا يخفى أن القسم اذا كان من الله بخلقه وكلماته فلا مظنة فيه للشرك ولا معنى له الا الشهادة الخالية عن معنى

التعظيم . وجملة الكلام أن الاعتراض على أقسام القرآن أو على أقسام الأنبياء والصلحاء الذين أظهروا بأقسامهم توكلهم على الله وفرارهم اليه واستعانتهم به وكذلك النهى المطلق عن اليمين لم ينشأ الا من قلة التدبر والتميز بين الامور . هذا وأما ما روى عن المسيح من نهيه عن الحلف مطلقاً فلعلة خاصة ونبينها فيما يتلو :

ايضاح ما نجد فى الانجيل

من النهى المطلق عن الحلف

(١٩) قد علمنا وقد اعترف علماء المسيحيين بأن أصل الانجيل مفقود وانما فى أيدينا تراجم اختلط فيها أقوال المسيح وأقوال الرواة ، والروايات مختلفة ربما يضاد بعضها بعضاً مع اضطراب المتون وعدم السند فضلا عن الاتصال والصحة فالالتفات اليها والتعرض لها ليس الا على تقدير التسليم وعلى سبيل التنزل فاعلم أن النهى عن الحلف جاء فى الخطبة المعروفة بالخطبة الجبلية المذكورة فى الانجيل المنسوب الى متى ببعض البسط ولا توجد فى مرقس ولا فى يوحنا ما خلا بعض الفقرات منها وجاءت فى لوقا مختصرة ولاختصاره اخترته ماخذاً لاقتباسى ، فان نظرت فى هذه الخطبة وتأملت آياتها ومواقعها تبين لك أنه عليه السلام لم يخاطب بها الجمهور ولم يجعلها شريعة عوض التوراة بل خص بها تلاميذه وأتباعه لمصلحة عظيمة كما ستعلمها . أما الدليل على التخصيص فمن وجوه :

الأول : تصريحه عليه السلام بذلك فان هذه الخطبة في متى مسبوقة متصلة بقوله « فلما جلس تقدم اليه تلاميذه ففتح فاه وعلمهم قائلا » وكذلك رواية لوقا تذكر أنه أحيى الليل بالصلاة ثم انه دعا تلاميذه واختار منهم اثنى عشر وبعد ذلك تقول « ورفع عينيه الى تلاميذه وقال» ثم بدأ الخطبة بقوله « طوبا كم أيها المساكين لأن لكم ملكوت الله ، طوبا كم أيها الجياع الآن لأنكم تشبعون ... ... طوبا كم اذا أبغضكم الناس واذا أفرزوكم وعيروكم وأخرجوا اسمكم كشرير ... ... ولكن ويل لكم أيها الاغنياء لأنكم قد نلتم عزاءكم ، ويل لكم أيها الشباعى لأنكم ستجوعون ويل لكم أيها الضاحكون الآن لانكم ستحزنون وتبكون»

والثانى أن فى هذه الخطبة أحكاماً لا تليق الا بالمساكين والفقراء فانه عليه السلام كما نهى فيها عن الحلف نهى عن الكثر والاهتمام للغدوحماية النفس عن الظلم وبالغ فى ذلك حتى قال « من ضرب على خدك فاعرض له الآخر أيضاً . ومن أخذ رداءك فلا تمنعه ثوبك أيضاً . وكل من سألك فأعطه ومن أخذ الذى لك فلا تطالبه»

والثالث : ان فى هذه الوصايا حسب ظاهرها نسخاً للتوراة والمسيح يتحاشى عنه فقال على سبيل دفع دخل مقدر قبل ذكر الوصايا « لاتظنوا أنى جئت لانقض الناموس (التوراة) أو الأنبياء ، ماجئت لانقض بل لاكمل » (متى) ثم دفع دخلا مقدراً آخر وهو أنه لا كمال فى ترك الدنيا بأسرها فبين لهم أن هذا كمال اضافى وهو التطهر عن الذنوب بالفرار عن الامتحان وكان ذلك سنته تعليما

للذين عجزوا عن كمال أكمل فقال « ليس التلميذ أفضل من معلمه بل كل من صار كاملا يكون مثل معلمه » (لوقا) والمبتدعون لم يرضوا بأن تكون سنته كمالا اضافياً فزادوا فى رواية متى « فكونوا أنتم كاملين كما أن أباكم الذى فى السماوات كامل » وفى رواية لوقا عوض هذه الجملة « فكونوا رحماء كما أن أباكم أيضاً رحيم » هيهات هيهات هل يساوى العبد ربه ولكن الحق غالب يبقى على رغم معانديه ويطمس على عيونهم فانظر الى تصريحه بما ينفى شائبة الشرك ويبين أن كماله كمال اضافى مما يختص بالفقراء كما جاء فى متى ص ١٩ عدد ١٦ « واذا واحد تقدم وقال له أيها المعلم الصالح أى صلاح اعمل لتكون لى الحياة الأبدية ١٧ فقال له : لماذا تدعونى صالحا ليس أحد صالحاً الا واحد وهو الله ولكن ان أردت أن تدخل الحياة فاحفظ الوصايا ١٨ فقال له : أية الوصايا ؟ فقال يسوع : لا تقتل لا تزن لا تسرق لا تشهد بالزور ١٩ أكرم أباك وأمك وأحب قريبك كنفسك ٢٠ قال له الشاب : هذه كلها حفظتها منذ حداثتى فماذا يعوزنى بعد ؟ ٢١ قال له يسوع : ان أردت أن تكون كاملا فاذهب وبع أملاكك واعط الفقراء فيكون لك كنز فى السماء وتعال اتبعنى ٢٢ فلما سمع الشاب الكلمة مضى حزيناً لأنه كان ذا أموال كثيرة ٢٣ فقال يسوع لتلاميذه الحق أقول لكم انه يعسر أن يدخل غنى الى ملكوت السماوات ٢٣ وأقول لكم أيضاً ان مرور جمل من ثقب إبرة أيسر من أن يدخل غنى الى ملكوت الله » فبين للسائل أن كماله فى اتباعه والتجرد عن أسباب التمدن، والظاهر أن هذا ليس بكمال الكاملين ألا ترى أن

ابراهيم وداود وسليمان ويوسف عليهم السلام كانوا ذوى الثروة والكمال في الدين معاً هل يقال انهم لم يدخلوا ملكوت الله . فيما قلنا تزول شبهة نقض الناموس وترفع المخالفة بين التوراة والانجيل

والرابع : ان هذه الوصايا ان اريد بها العموم والاطلاق تكون مخالفة لسنة أئمة الهدى كابراهيم وداود وغيرهما فانهم قاتلوا وانتصروا وجمعوا الوفر وأنفقوه في المواقع المحمودة ولم يكونوا عيالا على الناس. ولدفع هذا الاعتراض زادوا في رواية متى ما يحرف الكلام عن معناه فقال « طوبى للمساكين بالروح » وكذلك « طوبى للجياع والعطاش الى البر لأنهم يشبعون » وهذا لا يبدل باقي الكلام الذى فيه الخطاب الى الفقراء والمساكين من جهة المال لا من جهة الروح وانما حرفوه لأنهم لم يفهموا تأويله وسيأتيك عن قريب فتبين من غير شك أن هذه الأحكام مختصة بامة قد خلت وقضت وطرها وليست بشريعة كاملة يترقى بها الانسان الى ذروة الكمال في التمدن وتهذيب النفس وهي شريعة الاسلام لما فيه من اسلام النفس والمال لله تعالى أولا ثم القيام بهما في طاعة الرب كما قال تعالى « ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم» الآية وذلك مبسوط في موضعه فبعد هذا التخصيص لا دليل على نهيه عن اليمين مطلقاً وقد علمنا عقلا ونقلا جوازها والحاجة اليها ونحن معشر المسلمين نوقر الأنبياء أجمعين فلا نأول كلامهم الى ما يخالف العقل أو يحط الاخلاق وهذا يتبين كل التبين مما سنذكر في الفصل الآتى من المصلحه العظيمة التى لأجلها خصهم بهذه الوصايا وانما نذكرها بغاية الايجاز لأنها من مسائل بسطها يخرجنا عن موضوع هذا الكتاب وهي مبسوطة في موضعها

الحكمة فى تخصيص هذه الوصايا بأتباعه

(٢٠) المسيحيون لاحاجة لهم الى تطبيق النقل بالعقل فانهم زعموا أن الدين وراء العقل ولكن فيهم رجالا متفلسفين سعوا فى حماية الدين عن شين كل مايشمئز عنه العقل وهم مع ذلك بل لذلك عند أئمتهم وعامتهم من الملاحدة ومنهم اسبنوز المتفلسف الماهر بالعبرانية . فقبل أن نبين لك ما هو التأويل عندى نورد رأى هذا المتفلسف فى أمر هذه الوصايا لتعلم أنه يوافقنا فى جعلها مخصوصة لامة وحالة ولتعلم الفرق بين أهل العقول من طائفتى المسيحيين والمسلمين وتعلم أن تأويلنا مع ظهور حجته أكبر تعظيما للشريعة وصاحبها . زعم اسبنوز أن المسيح عليه السلام انما أمر أتباعه بأحكام فيها التذلل والخضوع للظالمين لانهم كانوا حينئذ مقهورين تحت سلطة الجبارين فأمرهم بأن لا تقاوموا الشر وتعرضوا الخدود للطمة وأمثالها لا لشرافة أو حسن أو تدين فيها بل لكونها أصلح بحالهم : فهذا الرجل مع علمه وخوضه فى كتب الأنبياء وأحوالهم أقر بكون هذه الوصايا مخصوصة ولكنه لم يهتد الى علة هذا التخصيص فلئن راعى جانب العقل فقد أضاع جانب الشريعة الالهية والمسيح وحواريه . وأما نحن فنقول ان من قرأ نسخ الانجيل هذه بالتأمل لا يخفى عليه أن المسيح عليه السلام انما جاء مبشراً بقرب ملكوت الله الظاهر الذى كان عبارة عن سلطة دينية وقد كان أعطاه الله اليهود وضيعوه ثم دارت عليهم الدوائر وكانوا ينتظرونه مرة أخرى لوعد الله لهم فبشرهم المسيح بقربه

وعرفه لهم بأمثال كثيرة تطابق مطابقة واضحة نبوة خاتم النبيين ولما لم يؤمن به جمهور قومه وآيسه علماؤهم لقساوة قلوبهم وتعبدهم لزخارف الدنيا اصطفى من عامتهم البسطاء شرذمة قليلة لم يغلبهم الترف والحرص لكيلا يعسر عليهم الدخول فى ملكوت الله اذا ظهر وحينئذ يكملون بالشريعة الكاملة فامرهم بوصايا تبقيهم على حالة الفقر والمسكنة ليبقوا على طهارة القلب والتقوى والصبر ليتوب الله عليهم حسب سنته ووعده كما هو مبسوط فى موضعه. وانما اخترنا هذا التأويل لأنه يجعل قول المسيح من أعظم البشرى ونبوة كبرى ولا يخالف العقل ولا النقل وذلك بأنه انطبق على أحوال المسيحيين ووقع عليهم كل ماأخبر عنه ، فان طائفة من أمته آثرت الفقر ونبذت المال وطائفة آثرت الدنيا وعيروا الأولين بتسميتهم بالفقراء وطردوهم ، كما بشرهم المسيح فى أول هذه الخطبة ، ولم يكن ذنبهم الا أنهم أعطوا أموالهم فى سبيل الله وألزموا على أنفسهم الفقر ولم يتركوا التوراة وحرموا الخنزير وأوجبوا الختان ولم يقولوا بالوهية المسيح ولم يقبلوا الا الانجيل العبرانى الذى ضيعه الآخرون وشنعوا على بالوس الذى بدل النصرانية وخالف الحواريين وادعى بأنه تعلم من المسيح فى الرؤيا فلا حاجة له الى اتباع تلاميذه . فلما جاء الملكوت المبشر على يد خاتم النبيين دخله كثيرون من هؤلاء الفقراء وخالفه الأغنياء متكبرون وعلى ما قلنا شهادات فى التوراة والانجيل والقرآن وتاريخ المسيحيين ولكن بسط ذلك فى كتابنا ملكوت الله وغيره فانما الكلام هاهنا جر بنا اضطراراً فلم يمكنا الصفح عنه بالكلية ولا البسط له بالتمام

فانه موكول الى موضعه الجدير به وجملة القول أن نهى المسيح عن اليمين مطلقاً كان مخصوصاً بالذين كانوا على سنته ولا ننكر ذلك فان امرءاً تسلل عن التمدن بالكلية وجمع جراميزه للملكوت عظيم ينتظره ، يُشتم ويلطم ويظلم فلا ينتقم فهو لا يعامل ولا يجادل فلا يقاول فأى أمر يدعوه الى الحلف انما يكون قوله لا لا ونعم نعم . ثم نقول ان نهيه عن القسم كان أيضاً مخصوصاً من جهة المقسم عليه كما يظهر من موقع كلامه فانى لا أرى انه عليه السلام نهى عن القسم على الحقائق الدينية لأنه عليه السلام نفسه حسب رواية يوحنا أشهد الله تعالى على صدق رسالته وهل القسم الا الاشهاد . وكذلك ترى فى القرآن أقسام صالحى النصارى المرسلين لتبليغ الحق حيث جاء فى سورة يٰس « قالوا ربنا يعلم انا اليكم لمرسلون * وما علينا الا البلاغ المبين » فقولهم « ربنا يعلم » قسم كما مر وهو ظاهر هذا وفى ما مر من الفصول السابقة كفاية ان شاء الله تعالى لمن أراد جواب الشبهات فان فيما ذكرنا توفيقاً بين النقل والعقل وتصديقاً بالتوراة والانجيل والقرآن . ومهما كان من اختلاف فانما هو من جهة الاتمام والتفصيل واقامة الوسط بين الافراط والتفريط ورعاية التميز بين دقائق الأحكام عند تشابك النفع والضر . وقد رأيت كيف راعى القرآن هذا التميز فى حكم القسم ، وليس هذا موضع تفصيله فى سائر أحكام هذه الشريعة الكاملة ، ولكن نذكر الآن ما لم نذكر من لحاظ الفرق فى استعمال كلمات القسم حسب مواقعها مما يحسن وما لا يحسن منه اتماماً لما ذكرنا من معانى المقسم وتنبيها على طرف آخر من بلاغة القرآن وحثا على بذل الجهد فى معرفة اللغة العربية فان بعض الجهل بها يضر بدين المرء

الفرق فى كلمات القسم

حسب مواقعها مما يحسن ومما لا يحسن

(٢١) قد تبين عند علماء اللسان أن فى الألفاظ المترادفة فروقا ولكل منها معنى خاصا وحداً محدوداً . وقد وجد علماء العربية فى القرآن من هذه الفروق ما لا ينتبه له الا الناقد المتبع كاستعماله الرياح فى موضع النفع والريح فى موقع الضرر ، وكاستعماله الأمطار فى موقع العذاب ، فمن هذا الباب مراعاة الفرق بين كلمات القسم بحيث يشير بذلك الى بعض خصائصها . وقد ذكرنا فى الفصل الثامن عشر أن القسم ربما يهين قدر المرء ويذهب بشرفه فانظر كيف ينبه القرآن على هذا الأمر باستعماله كلمة الحلف فيمن يصغر نفسه بيمينه ويلح حيث لا يلح شريف ، فترى فى سورة البراءة ذكر القسم من المنافقين فى سبعة مواضع فلم يأت به الا بكلمة الحلف لدناءتهم وكذبهم فى اعتذارهم وما جاءت هذه الكلمة فى سائر القرآن الا حيث يشنع لما فيها من قلة المبالاة بشرف النفس والنزوع الى ما يلقيها فى الكذب والالحاح ولذلك لما أراد النابغة الغلو فى تضرعه عند النعمان بن المنذر قال :

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة وليس وراء الله للمرء مذهب

فأفصح عن غاية الاستكانة ، وهذا أبلغ بينة فى اظهار الخشية والتذلل وهو أبلغ الشعراء عند الرهبة ولذلك قيل « أشعرهم امرؤ القيس اذا ركب ، والاعشى اذا طرب ، وعنترة اذا غضب ، والنابغة اذا رهب »

فان صحت هذه الخصوصية عندك عرفت قدرها فى الدين ، فانك اذا تجنبت استعمال كلمة الحلف لله تعالى كما ترى المفسرين منا والمترجمين للتوراة لا يبالون بقولهم « حلف الله بكذا » ولخصائص باقى كلمات القسم نحوّلك الى الفصل السابع لكى تستنبطها مما ذكرنا من معانيها فان موضوع الكلام هاهنا أن القسم لما كان أحيانا مذموما ذمه القرآن حسب موضعه ودل عليه بكلمة خاصة، وهذا من تمام التشريع وكمال التبيين كما قال تعالى «ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين »

خاتمة الكتاب

(٢٢) كل ماذكرت فى الفصول السابقة ليس الا مايتعلق بمسألة القسم من جهة كلية ، وأما تأويل آيات القسم على تفاصيلها فمذكور فى مواضعها من التفسير غير أنى فى طى الفصول وغضون الأمثلة دللت على ملاك أمرها وسمت نهجها . ثم لم يهمنى فى هذا الكتاب الا طرف خاص من بحث القسم وهو الذى اشتبه على المعترض ومع ذلك ربما قادتنى علائق الكلام الى أمور نقتضى بسطا وتفصيلا فجلتُ جولة الى فسحة من القول حتى اذا سطع الحق وانجابت الشبهة اقصرت عن استقصاء البحث لكيلا اخرج عن الموضوع فصار الكتاب جامعاً بين خطتين الايجاز والاطناب وواقعاً بين نقطتين الاجمال والتفصيل . ويوشك الناظر المستعجل يتهمنى مرة بالحصر وأخرى بالهذر ، فليعلم أنه قد اضطرنى الى هذا الوضع شكل المسألة وصورتها الخاصة . ومع ذلك ما ابرّئ نفسى عن الزلة والعثرة ، وفى ذلك تمام المعذرة . وأسأل الله العفو والمغفرة ، فانه أرحم الراحمين

﴿ وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ﴾

فهرس

صفحة

ترجمة صاحب هذه الرسالة

المعلّم عبد الحميد الفراهي

رحمه الله

بقلم صديقه العلاّمة الجليل

السيد سليمان الندوي

رئيس جمعية دار المصنفين

ومنشيء مجلة (معارف).

ترجمة صاحب هذه الرسالة

الدنيا دار العجائب ، ومن أعجب عجائبها وقوع ما كنتَ تحذر منه ، وحدوث ما لم يخطر ببالك

بعثنا هذه الرسالة للطبع ، وصاحبها حيٌّ يرزق . فلم يمض شهر حتى فوجئنا بموته ، وفُجعنا بانخرام حياته ، وكان رحمه الله آية من آيات الله فى حدّة الذهن ، وكثرة الفضل ، وسعة العلم ، ودماثة الخلق ، وسداد الرأى والزهد فى الدنيا ، والرغبة في طلب مرضاة الله

هو حميد الدين أبو أحمد عبد الحميد الانصارى الفراهى

وُلد رحمه الله سنة ١٢٨٠هـ فى قرية فَرِيْها من قرى مديرية أعظم كره فى الولايات المتحدة بالهند . وكان ابنَ خال علاّمة الشرق ومؤرخ الاسلام الشيخ شبلى النعمانى ، تغمده الله برحمته

واشتغل بعد ما ترعرع فى طلب العلم ، فحفظ القرآن ، وقرأ كدأب أبناء العائلات الشريفة فى الهند اللغةَ الفارسيةَ ، وبرع فيها ، فنسج قصيدة فارسية صعبة الرديف بارى فيها شاعر الفارسية الطائر الصيت خاقانى الشروانى ، فأتى فيها بما أعجب الشعراء

واشتغل بعد ذلك بطلب العربية ، فاستظل بعطف أخيه الشيخ شبلى النعمانى ، وهو كان أكبر منه بست سنين ، فاخذ منه العلوم العربية كلها من صرفها ونحوها ، ولغتها وأدبها ، ومنطقها وفلسفتها . ثم سافر الى لكنؤ مدينة علم الولايات المتحدة ، وجلس فى حلقة الفقيه المحدّث

الامام الشيخ أبى الحسنات عبد الحى اللكنوى صاحب التعاليق المشهورة ثم ارتحل الى لاهور وأخذ الأدب العربى من إمام اللغة العربية وشاعرها المفلق فى ذلك العصر الشيخ الأديب فيض الحسن السهارنفورى شارح الحماسة واستاذ اللغة العربية فى كلية العلوم الشرقية بلاهور ، فبرع فى الآداب العربية وفاق أقرانه فى الشعر والانشاء . قرأ دواوين الجاهلية كلها وحلّ عقد معضلاتها . وقنص شواردها . فكان يقرض القصائد على منوال الجاهليين ويكتب الرسائل على سبك بلغاء العرب وفصحائهم

ثم عرّج على اللغة الانكليزية ، وهو ابن عشرين سنة ؛ ودخل فى كلية على گره الاسلامية ونال بعد سنين شهادة ب ع من جامعة الله أباد وامتاز فى الفلسفة الحديثة أخذها من الاستاذ الدكتور توما أرنلدْ الانكليزى الاستاذ بكلية على گره الاسلامية يومئذ ، فصار مجمع البحرين وبينهما برزخ لا يبغيان . كان عالماً بالعلوم العربية والدينية وفاضلا فى العلوم العصرية والانكليزية ، فاجتمعت فيه خصال الجنسين المتقين من العلماء الراسخين ، والمتنوّرين من الفضلاء الكاملين

وبعد ما قضى وطره من طلب العلم ، واستقى من حياضه ، ورتع من رياضه . نُصب معلّماً للعلوم العربية بمدرسة الاسلام بكراتشى عاصمة السند . فدرّس فيها سنين وكتب وألف ، وقرض وأنشد

ثم انقطع الى تدبر القرآن ودرسه . والنظر فيه من كل جهةٍ ، وجمع علومه من كل مكانٍ ، فقضى فيه أكثر عمره ؛ ومات وهو مكبٌّ على أخذ ما فات من العلماء ، ولفّ ما نشروه ولمّ ما شتتوه ، وتحقيق ما لم

يحققوه . فكان لسانه ينبع علماً بالقرآن وصدره يتدفق بحثاً عن مشكلاته وقلمه يجرى كشفاً عن معضلاته . وهو كان يعتقد أن القرآن مرتب بيانه ومنّسقة النظام آياته . وكل ماتقدم وتأخر من سوره وآيه بنى على الحكمة والبلاغة ورعاية مقتضى الكلام . فلو قدم ما أخر وأخر ما قدم لبطل النظام ، وفسدت بلاغة الكلام . وكان يرى أن القرآن يفسر بعضه بعضاً فأعرض عن القصص وما أتى به المفسرون من الزخارف والعجائب . هذا كان دأبه فى تفسيره الذى سماه نظام الفرقان وتفسير القرآن بالقرآن وكان حسن النظر فى كتب اليهود والنصارى ، فاستمتع بها فى مباحثه

ولما سافر الحاكم العام فى الهند اللورد كرزن فى رحلته السياسية سنة ١٩٠ م الى الشواطىء الغربية والخليج الفارسى ليجتمع بشيوخ العرب وأمرائهم عين الشيخ حميد الدين ترجماناً فرافقه فى السفر ، وانتخب بعد ما قفل من رحلته معلماً للغة العربية بكاية على گره الاسلامية ؛ وكان يومئذ استاذ اللغة العربية بها المستشرق الألمانى الشهير يوسف هارويز فالمستشرق استكمل منه العربية ، وهو قرأ عليه العبرانية . وبعد سنين نصب استاذاً للغة العربية بجامعة الله أباد ، وبقى هناك أعواماً حتى انتقل منها الى حيدر آباد الدكن رئيساً لمدرسة دار العلوم العربية الأميرية النظامية التى كانت تخرّج قضاة البلاد وولاتها

وهو الذى ارتأى تأسيس جامعة أردوية تدرس العلوم الدينية بالعربية والعلوم العصرية بالاردوية ؛ وبذل جهده فى تحقيق هـذا الأمل وانجاز هذا العمل حتى نال القبول من مالكى أزمّة الأمور والجمهور .

وصادق عليه دولة الأمير الاعظم النواب نظام الملك آصف جاه الثامن عثمان على خان خلّد الله ملكه ودولته . وسميت بالجامعة العثمانية ، وهى يومئذ من أحدث جامعات العالم سناً ولكن أعجبها نظاماً

ثم استقال من خدمته ولزم بيته ، وانقطع الى العلم . وكان قد أسس فى قرب من قريته مدرسةً عربية دينية سميت « مدرسة الاصلاح » فكان ينظر فى شئونها ويجريها على أمثل طريق اخترعه وأحسن أسلوب أبدعه . ومن جلّ مقاصدها تحسين طريقة تعليم العربية ، وايجاز قائمة دروسها المتعبة العقيمة ، والغاء العلوم البالية القديمة ، والعكوف على طلب علوم القرآن ، والبحث عن معانيه ونظمه ، وأحكامه وحكَمه

وكان رئيساً للجنة المديرين « لدار المصنفين » التى أُسست تذكاراً لأخيه الشيخ شبلى النعمانى فكان هو أحد مؤسسيها . وكان يبذل أوقات فراغه فى التأليف والتدوين والنظر فى القرآن ومعانيه والقاء دروسه على تلامذته الملتفّين حوله . فسمح خاطره المتدفق بما بخل به القدماء من علومه ، وفرق على العفاة مالم يجمعه الاوائل فى صحفهم

كان رحمه الله منقطعاً الى هذا البرّ من العمل ، حتى أتاه الأجل فى التاسع عشر من جمادى الثانية سنة ١٣٤٩ (الحادى عشر من نوفمبر سنة ١٩٣٠ م) مات غريباً فى مدينة متهورا كعبة الوثنيين فى الهند . كان رحل اليها عليلا يستشير طبيباً نطاسياً من أبناء بلدته موظّفا فيها فلم ينجحه لدواء ، ولم يرزق الشفاء ، وأنهكته العلة التى سدكت به ، وخابت العملية لتى قام بها الطبيب وهو محتسب صبراً ، ومطمئن شكراً . يجود بنفسه وهو يتلو

القرآن ، ويشكر الرحمن . حتى أسكت الحِمام . ناظم الكلام ، الى يوم القيام . وكل من عليها فان ، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام . صدق قول القائل : عاش حميداً ومات شهيداً

خلّف من آثار خاطره ذخيرة لا تفنى ، وعلوماً لا تبلى . وأكثرها بالعربية

فما طبع من كتبه :

(١) أسباق النحو جزآن بالأردوية (٢) وديوانه الفارسى (٣) وخردنامه كتاب نظم فيه حكمة سيدنا سليمان بالفارسية القحة لا تشوبها كلمة عربية ، (٤) مقالة فى الشفاعة والكفّارة بالانكليزية رد بها على بعض علماء النصارى . والبقية الآتية كلها بالعربية ، (٥) الرأى الصحيح فى من هو الذبيح ، (٦) وتفسير سور من القرآن ، وهو جزء من أجزاء تفسيره نظام الفرقان (٧) وامعان فى أقسام القرآن

ومما لم يطبع من كتبه :

(٨) بقية تفسير سور من القرآن (ولم يكمله ، وذلك ماخسرت به الامة المحمدية) (٩) جمهرة البلاغة (اصل فيها أصولها ليهدى الناس الى فهم اعجاز القرآن ، ورد فيها على أصول ريطوريقا لارسطو الذى أضل المتأخرين من مصنفى كتب البلاغة ، حتى الشيخ عبد القاهر الجرجانى رحمه الله) (١٠) فلسفة البلاغة (١١) سليقة العروض (١٢) دلائل الى النحو الجديد والمعانى والعروض والبلاغة (١٣) ملكوت الله (وهو تحقيق نواميس الله وسننه فى خلقه وتدبيره ومجازاته) ، (١٤) الرائع في أصول

الشرائع ، (١٥) أساليب القرآن ، (١٦) إحكام الاصول بأحكام الرسول (وهو تتبع طرق الاجتهاد النبوي) ، (١٧) القائد الى عيون العقائد (وهو تحقيق ماجاء به القرآن من الدين لايشوبه بدعة المبتدعين وفتنة المتكلمين) (١٨) كتاب العقل وما فوق العقل (تحقيق العلوم التي تدركها العقول والتي فوق ادراكها) ، (١٩) الاكليل فى شرح الانجيل ، (تصحيح ما نطق به الرسول المسيح ، وتفسير ماأوله المبطلون من أهل الصليب) (٢٠) أسباب النزول (نزول القرآن) (٢١) تاريخ القرآن (تاريخ جمعه وتأليفه . وهو كان يعتقد بالادلة القرآنية الصحيحة أن القرآن كان مؤلفا على عهد النبي ﷺ) (٢٢) أوصاف القرآن (شرح ماوصف به القرآن نفسه ، من الحكمة والذكر والنور والابانة وغيرها من النعوت ، (٢٣) فقه القرآن (٢٤) حجج القرآن (٢٥) كتاب الرسوخ فى معرفة الناسخ والمنسوخ (٢٦) رسالة فى اصلاح الناس (٢٧) كتاب أصول التاويل (٢٨) مفردات القرآن (تحقيق معانى كلمات القرآن بالقرآن) (٢٩) دلائل النظام (هو ايضاح ماأراد به من نظام القرآن واستدل بالآثار على صحة ماأراد ، وأقام عليه الحجج . (٣٠) الازمان والاديان ، (ان الدين لايتقلب بتقلب الازمان ، والدين كله واحد) (٣١) كتاب الحكمه (شرح معنى الحكمة التى فى القرآن ، والتى أوتى النبيون . وما كانوا يعلمون الناس منها) (٣٢) القسطاس (رسالة فى علم جديد وهو منطق العمل وميزان الارادات وأساس الحكمة العملية) (٣٣) ديوانه العربى ونعته بديوان ابى أحمد الانصارى

من يقرأ أسماء هذه الكتب ، يقضي منها العجب ويؤمن بما أوتي صاحبها من سعة العلم ، وصحة النظر ، وكثرة الفضل ، وسلامة الذوق ، وتوقد الذهن ، والتأمل فى القرآن ، وفهم أصوله ومعانيه . وتناول أقاصيه وأدانيه

رحمه الله وأكرمه ، ونفعنا بعلومه وكتبه . ويسّر لنا طبعها ونشرها وعمّ المستفيدين خيرها وبرها

دار المصنفين
بمدينة اعظم كره بالهند
٢٧ شعبان سنة ١٣٤٩

العبد الكئيب المحزون
سليمان الندوى